المغفور له الدكتور **محمد عبد الله دراز**

عضو جماعة كبار العلماء

* ملخص للرسالة الفرعية لنيل درجة الدكتوراة من فرنسا*

مختصر

مدخل إلي القرآن الكريم

INITIATION AU KORAN

عرض تاريخى و تحليلى لقضايا القرآن

(كيف جُمع.. كيف انتشر.. مامحتواه.. ماعلاقته بالكتب السابقة..
مامصدره .. مع تفنيد للشبهات)

ترجمة و تلخيص

محمد عبد العظيم على

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المختصر

على الرغم من مرور ما يقرب من نصف قرن على هذا البحث العظيم ، فإن نتائجه تكاد تكون غير معروفة و غير متداولة فى أوساط المسلمين رغم أهميتها وضرورتها ، ولا سيما فى هذه الأيام العصيبة و هذا الجو العالمى المشحون ضد الإسلام، مما استدعى اعداد تلخيص لهذا البحث ، لتعريف اكبر قطاع من قراء العربية بالجهود العلمية لأحد اكبر علماء المسلمين الاجلاء فى هذا العصر ، و تقديم هذا "المختصر" للقارىء الكريم فى حجم صغير ، و اسلوب سهل، وعرض مبسط ، تقريبا للافهام ، و تعميما للفائدة ، و اسهاما فى صد ما يواجه العالم الاسلامى من تحديات ، ولكى يرى الناس جميعا الوجه الحقيقى للقرآن الكريم الذى ما أنزله الله إلا رحمة للعالمين .

ورحم الله فقيدنا الاستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ، و أجزل له الثواب على ما بذله فى خدمة الإسلام و المسلمين ..

و الله ولى التوفيق

الاسكندرية فى ٢٠ مايو ١٩٩٦

الموافق ٢ المحرم ١٤١٧

محمد عبد العظيم على

مختصر
مدخل إلي القرآن الكريم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع القانوني
٩٦/٩٨٤٦

الترقيم الدولي: 977-253-132-1

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى : ٢ ش منشا ـ محرم بك ـ الإسكندرية.
ت:٤٩٠١٩١٤ـ ٤٩٠٧٩٩٨ ـ فاكس :٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة :ت :٣٨٣٢٧٤٧

ملخص مقدمة المؤلف

نستطيع دراسة القرآن الكريم من زوايا متعددة ، و لكنها تنتهى إلى قطبين أساسيين .. اللغة والفكر . فالقرآن الكريم كتاب أدبى و عقيدى فى نفس الوقت و بنفس الدرجة . أما الجانب الثانى ، فهو هذا الكنز من الأفكار الذى يتكشف من خلال أسلوبه الأدبى الرفيع و الذى سنعرض هنا لثلاث مجموعات منه. الأولى : طبيعة دعوته أى مجموعة الحلول التى يقدمها للمشكلتين الخالدتين ألا وهما المعرفة و السلوك . والثانية هى أساليب الإقناع التى يستخدمها لإثبات صدق دعوته . و أخيرا البراهين التى يدلل بها على الطابع الربانى المقدس لرسالته .

وفى الحقيقة كان الغرض المبدئى من هذه الدراسة هو استخلاص قانون الأخلاق القرآنى بعيدا عن كل ما يربطه بباقى القرآن الكريم ، و هو العمل الذى خصصنا له كتابا آخر (ترجم إلى العربية بعنوان ' دستور الأخلاق فى القرآن '). غير أننا رأينا من المفيد عرض الخطوط الرئيسية لهذا البناء الفكرى الشامخ ، و توضيح مكان العنصر الأخلاقى داخل الإطار الكلى ، فضلا عن استخراج الأفكار الرئيسية الموجودة فى كل جزء من أجزاء كتاب الاسلام .

و بعد تقديم عدة نقاط تاريخية بناء على اقتراح ' مسيو موريس باترونييه دى جانديلك ' الاستاذ بالسوربون . فإن الموضوع الجوهرى لبحثنا هو عرض رسالة القرآن الكريم فى جملتها كما يعرضها القرآن نفسه ، لا كما وردت من خلال الأحكام أو التفسيرات أو التطبيقات التى اختلفت نسبة اخلاصها عبر التاريخ . و سوف نقابل فى طريقنا بشأن القرآن إما بعض الأحكام القاسية فنصححها أو بعض الاستنتاجات العاجلة فنقومها . و فى كل هذا سوف نترك القرآن ليتولى الدفاع بنفسه عن نفسه و يقدم الحجة تلو الحجة .. تاركين للقارىء الفرصة ليقدر بنفسه قيمة هذه الحجج تاريخيا و فلسفيا .

و جدير بالذكر أن استخلاص فكرة القرآن من غلافها و إخراجها على هذا النحو من إطارها المحلى لتقريبها إلى الفكر الأوروبى البعيد عن اللغة العربية ، هو تحقيق لجزء من رسالة القرآن الحقيقية . لأن القرآن يقصد الإنسان حيث يكون و إلى أى جنس ينتمى. و ذلك حين يوجه نداءه إلى العقل و الذوق السليم والشعور النبيل فى الإنسان . إن القرآن دعوة عالمية تهدف إلى تطهير العادات و توضيح العقائد و التقريب بينها ، و إسقاط الحواجز العنصرية و الوطنية ، و إحلال قانون الحق و العدل محل قانون القوة الغاشمة .

باريس فى ٢١ فبراير ١٩٤٧

محمد عبد الله دراز

البـــاب الأول

حقائق تاريخية أولية

تمهيد

قبل أن نشرع فى دراسة منهجية لكتاب الإسلام . سوف نذكّر بالظروف التى أنزل فيها والمراحل التى مرّ بها حتى وصل إلى أيدينا .

وأيا كان الاعتقاد فى مصدر القرآن الكريم فمن الثابت تاريخيا أنه يرجع إلى محمد بن عبد الله ﷺ سواء استقاه من أعماق نفسه ، و من معارف بيئته - كما يقول الكافرون - أو أنه تلقاه حرفيا بإملاء رسول سماوى وسيط بينه و بين الله - كما يؤكد القرآن ذلك ﴿ نزل به الروح الأمين - الشعراء ١٩٣﴾ ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله - مصدقا لما بين يديه ، و هدى و بشرى للمؤمنين - البقرة ٩٧ ﴾ .

وبما أن علمنا المحدود لا يستطيع أن يصعد إلى هذا المصدر البعيد عن الطاقة البشرية ، فإننا على أى حال تلقيناه من محمد ﷺ سواء أكان مؤلفه أو مبلغه الوحيد إلى البشرية جمعاء .

الفصل الأول [1]

كيف جمع نص التنزيل الحكيم

وإن كان نص القرآن الكريم الذى بين أيدينا اليوم مطابقا تماما لما أملاه الرسول ﷺ لكتبة الوحى ، فإن الشكل الخارجى قد طرأ عليه تغيير كبير . إذ لم يكن هناك ما يطلق عليه كتابا أو مجلدا . فقد نزل القرآن أجزاء متفرقة تتباين أطوالها من سورة كاملة إلى آية واحدة و أحيانا جزء من الآية . وكان الرسول ﷺ يتلو كل جزء ينزل عليه ويعلمه للسامعين ليصل عن طريقهم إلى من لم يسمعه من فم الرسول ﷺ مباشرة . وكان الناس جميعا ينتظرون الوحى بشغف و يتمنون أن يتلقوه فور نزوله .

غير أن النص المنزل لم يقتصر على كونه ' قرآنا ' أى مجموعة من الآيات تتلى و تقرأ و تحفظ فى الصدور ، و إنما كان أيضا ' كتابا ' مدونا بالمداد . فهاتان الصورتان تتضافران و تصحح كل منهما الأخرى . و لهذا كان الرسول ﷺ كلما جاءه الوحى و تلاه على الحاضرين أملاه من فوره على كتبة الوحى ليدونوه على أى شىء كان فى متناول أيديهم مثل الورق أو الخشب أو قطع الجلد أو صفائح الحجارة أو كسر الأكتاف . . . الخ . و يذكر العلماء الثقاة أن عدد كتّاب الوحى بلغ تسعة وعشرين كاتبا أشهرهم الخلفاء الخمسة الأوائل . و لكن معاوية و زيد بن ثابت كانا أكثر ارتباطا بمهمة الكتابة التى لم تأخذ الطابع الرسمى إلا فى المدينة . إلا أن المسلمين بمكة لم يتوانوا فى تسجيل الآيات فى مخطوطات شخصية لاستعمالهم الخاص .

ولقد لوحظ منذ وقت مبكر أن مجموعات الآيات لم تكن لتبقى منعزلة بعضها عن بعض ، و لا أن تتوالى بعضها تلو الأخرى حسب نزول الوحى. و قد كانت مجموعات تتزايد بمعزل عن مجموعات أخرى. و تكوّن تدريجيا وحدات مستقلة بعد أن تنضم إليها آيات أخرى نزلت بعدها. و أن آيات كانت تضاف هنا و الأخرى تتداخل مع غيرها هناك. بحسب أمر الرسول الصريح الذى كان يتلقاه بدوره من روح القدس. وحتى تتاح الفرصة لسور القرآن لكى يتم بناؤها تدريجيا كان ينبغى الانتظار إلى أن يكتمل الوحى كله لإخراج القرآن فى شكل وحدة كاملة .

---

[1] رأينا حذف الفصل الأول من أصل الكتاب " حياة الرسول قبل البعثة" الذى قصد به المؤلف المجتمع الأوروبى البعيد عن السيرة النبوية المطهرة. وهى حقائق مشهورة بين المسلمين مما يغنى عن تكرار نشرها. (وبهذا فإن الفصل الأول فى هذا الباب هو الفصل الثانى فى أصل الكتاب ، والثانى هنا هو الثالث هناك). (المختصر)

و لم يحل هذا بين المؤمنين و بين المعرفة الشفوية لموضع كل آية جديدة من كل سورة على وجه التحديد ، فى كل مرحلة من مراحل نزول الوحى. و كان فى حياة الرسول ﷺ مئات من الصحابة يطلق عليهم ' حفظة القرآن ' تخصصوا فى تلاوة القرآن وحفظه عن ظهر قلب ، و فى معرفة كل سورة فى هيئتها المؤقتة أو النهائية . و كان الرسول يذكر أنه فى شهر رمضان من كل عام كان يقوم بمراجعة عامة و تلاوة الآيات التى نزل بها الوحى فى حضور جبريل عليه السلام ، و أنه فى العام الأخير راجع عليه جبريل القرآن مرتين مما جعل الرسول ﷺ يتنبأ بقرب أجله .

و لم يمض عام واحد بعد أن قبض الرسول ﷺ إلا وبدت الحاجة ملحة لجمع وثائق القرآن فى مجموعة مدونة ، سهلة الاستعمال حيث تتتابع آيات كل سورة ، كما هو ثابت فى حافظة المسلمين . و لقد تقدم عمر بن الخطاب بالفكرة إلى الخليفة الأول عقب معركة اليمامة التى قتل فيها مئات من المسلمين منهم 'سبعون من حفظة القرآن ' . وكان عمر يهدف ليس فقط إلى حفظ المدون من القرآن فى مأمن من الأخطار ، و إنما أيضا إقرار الشكل النهائى لهذا الكتاب المقدس و توثيقه عن طريق حفظته الباقين على قيد الحياة ، و اعتماده من الصحابة الحافظين .

و لقد عهد أبو بكر بهذه المهمة إلى زيد بن ثابت و قال له ' إنك رجل ذكى لا نتهمك . و كنت تكتب الوحى فى عهد الرسول ﷺ . فقم بجمع القرآن ' [1] و كان زيد قد حضر بنفسه آخر تلاوة للقرآن قام بها الرسول . ووضعت قاعدة للعمل ، تقضى بألا يؤخذ بأى مخطوط لا يشهد شخصان على أنه مكتوب ليس من الذاكرة ، و إنما بإملاء الرسول ذاته ، و أنه جزء من التنزيل فى صورته النهائية. و بعد جمع القرآن بكل هذه الاحتياطات ، سلمه زيد إلى أبى بكر الذى احتفظ به طوال خلافته ، و عهد به قبل موته إلى عمر ، ثم قام عمر بتسليمه إلى ابنته حفصة أم المؤمنين فى آخر لحظة من حياته .

و يتميز أول مصحف رسمى (الذى يمكن أن نشبهه بملف يجمع صحفا مرتبة و غير مجلدة) بكماله المطلق و بمطابقته المطلقة للنص المنزل . و يختلف عن النسخ الأخرى الكاملة أو الناقصة التى كانت عند الأفراد بأنه استبعد منه كل ما لم يتضمنه النص الأصلى طبقا للعرضة الأخيرة . كما كان يخلو من أسماء السور . و لكن رغم

---

[1] بعد أن أورد "لوبلوا" هذه الرواية أردف قائلا : " من ذا الذى لم يتمن لو أن أحداً من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة" (القرآن والتوراة العبرية - ص ٤٧ مذكرة ٥).

قيمة هذا المصحف العظيمة و رغم ما استحقه و ناله من العناية التى بذلت فى جمعه ، وبقائه محفوظا بعناية عند الخليفتين الأولين . فإنه لم تتح فرصة نشره إلا فى خلافة عثمان بعد معارك أرمينية و أذربيجان .

فحين تجمعت جيوش المسلمين الوافدة من سوريا ومن العراق ، لاحظوا بعض الاختلاف فى القراءات . إذ كان السوريون يتبعون قراءة ' أُبَىّ ' و العراقيون يتبعون قراءة ' ابن مسعود ' . فقال بعضهم لبعض ' قراءتنا خير من قراءتكم ' ففزع حذيفة بن اليمان إلى عثمان و طلب إليه أن يضع حدا لهذا اللجاج الذى قد يؤدى إلى مثل ما وقع فيه اليهود و النصارى من فرقة بشأن كتبهم . فشكل عثمان لجنة من أربعة نساخ من الصحابة منهم زيد بن ثابت نفسه – من الأنصار – و عبد الله بن الزبير و سعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام – من المهاجرين . و كلفهم بنسخ مصحف حفصة بعدد من النسخ تعادل عدد الأمصار [1] الرئيسية فى الدولة الإسلامية . و بانتهاء هذا العمل بما يتفق تماما مع النص الأصلى ، أعيد مصحف حفصة إليها بينما جلدت النسخ الأخرى ووزعت على الأمصار ، باعتبارها نماذج لا بديل لها وتبطل كل ما يخالفها من قريب أو بعيد .

ولقد ظن بعد الشيعة أن عثمان قد بدل فى نص القرآن. أو أنه على وجه التحديد أسقط شيئا يتعلق بعلى بن أبى طالب. فلو صح ذلك لراجعه حملة القرآن و ما أكثرهم فى وقت نشر مصحف عثمان عند مضاهاتا على ما يحفظونه فى صدورهم . إلا أنه حتى ابن مسعود نفسه قد أقر بصحة مصحف عثمان برغم عدم رضائه عن السياسة لعدة أسباب. و نظرا لغيرة المسلمين الأوائل – و هم بطبيعة الحال أكثر تحمسا لكلام الله من خلفائهم – يستحيل علينا أن نعلل قبول الكافة لمصحف عثمان دون منازعة أو معارضة ، بأنه راجع إلى انقياد غير متبصر من جانبهم . و لقد قرر ' نولدكه ' أن ذلك يعد أقوى دليل على أن النص القرآنى ' على أحسن صورة من الكمال و المطابقة ' .

و مهما يكن من أمر ، فإن هذا المصحف هو الوحيد المتداول فى العالم الإسلامى – بما فيه فرقة الشيعة – منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان . و نذكر هنا رأى الشيعة الإمامية (أهم فرق الشيعة) كما ورد بكتاب أبى جعفر الأم ' إن اعتقادنا فى جملة

---

[1] يتفق أغلب الرواة على أنها كانت خمس نسخ خطية (فيما عدا نسخة عثمان الشخصية) أرسلت إلى مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق. ويذكر حاتم السجستانى نسختين لليمن والبحرين (كتاب المصاحف لابن أبى داو د ص ٧٤)

القرآن الذى أوحى به الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ هو كل ما تحتويه دفتا المصحف المتداول بين الناس لا أكثر. و عدد السور المتعارف عليه بين المسلمين هو ١١٤ سورة. أما عندنا فسورتا الضحى و الشرح تكونان سورة واحدة ، و كذلك سورتا الفيل و قريش، و أيضا سورتا الأنفال و التوبة . أما من ينسب إلينا الاعتقاد فى أن القرآن أكثر من هذا فهو كاذب ' . (وهذا الفرق الشكلى لا يوجد إلا نظريا لأن نسخهم لا تختلف عن نسخ أهل السنة فى شىء).[1]

وبناء على ذلك أكد ' لوبلوا ' : ' أن القرآن هو اليوم الكتاب الربانى الوحيد الذى ليس فيه أى تغيير يذكر ' . و كان ' و.موير ' قد أعلن ذلك قبله إذ قال ' إن المصحف الذى جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أى تحريف. و لقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أى تغيير يذكر . بل نستطيع القول إنه لم يطرأ عليه أى تغيير على الإطلاق فى النسخ التى لا حصر لها ، و المتداولة فى البلاد الإسلامية الواسعة ... فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة ، و هذا الاستعمال الإجماعى لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا ، و الذى يرجع إلى الخليفة المنكوب عثمان الذى مات مقتولا ' . وهذا الحكم الذى يمتاز بنزاهة تاريخية لا مثيل لها يحتاج إلى تصحيح فى نقطتين لأنه أرجع النص القرآنى إلى عثمان فى حين أن عثمان لم يقم إلا بنشر المخطوط المجموع فى عهد أبى بكر و الذى لم يكن إلا التدوين الكامل حسب ترتيب العرضة الأخيرة للرسول ﷺ بإملاء الرسول نفسه ، و يتضمن الحكم أيضا زيادة بأن أكد بأن النسخ المتداولة لا تتضمن أى اختلاف فى القراءة . و نعلم عكس ذلك. فإن الحروف المتحركة الطويلة تكتب دائما فى جسم كل كلمة بينما الحروف المتحركة القصيرة و المتوسطة لا تكتب أبدا . كما أن مجموعة كبيرة من الحروف العربية لا تختلف عن بعضها إلا ببعض نقط التشكيل مثل الياء و النون و الباء والتاء .. و لم تكن

---

[1] أما "سورة النورين " الموضوعة والتى نشرها " جارسين دى تاسى" تحت عنوان: " سورة مجهولة من القرآن" فقد اثبت العالم الجليل - ميرزا اسكندر كاظم - أن السورة المزعومة لايوجد لها أثر فى مصحف الشيعة ، ولم يرد ذكرها فى مؤلفاتهم الخاصة بمجادلاتهم التقليدية. بل إن عنوانها " النورين" والذى يشير إلى محمد ﷺ وعلىّ ﷺ لم يظهر لأول مرة عند الشيعة إلا فى القرن السابع الهجرى طبقاً لما جاء عند الطوسى. وهى لاتعدو أن تكون تراكماً ركيكاً من العبارات والكلمات المسروقة من القرآن ، وهذا يتعارض تعارضاً شديداً مع أناقة الأسلوب القرآنى وتناسقه.

هذه النقط تستخدم فى عهد النبى ﷺ و لا فى عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة من بعده . وفى الغالب كان النطق لا يتضح إلا بإرشاد شفوى . غير أن السنّة توضح لنا أن الرسول ﷺ لم يتبع نطقا واحدا عند تعليمه القرآن للمسلمين . فلم يكن نادرا أن يعطى للكلمة الواحدة (أو أصلها) أكثر من قراءة ، كلها صحيحة و لها مدلولها مثل ' ملك ' قد تقرأ ' مالك ' أو 'ملك' و كذلك ' فتبينوا ' يمكن قراءتها ' فتثبتوا ' طبقا للقراءات المختلفة الواردة فى السنة . فقد قال الرسول ﷺ ' . . إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف . فاقرءوا ما تيسر منها '. و يروى البخارى أن عمر ثار على هشام بن الحكيم بن حزام لقراءته سورة الفرقان ، و يذكر الطبرى أن أبّى بن كعب صدم من قراءة سورة النحل . و عندما احتكموا إلى الرسول ﷺ أقر القراءتين .

و فى رأينا أن نشر القرآن بعناية عثمان كان لهدفين : أولهما أن إضفاء صفة الشرعية على القراءات المختلفة – التى كانت تدخل فى إطار النص المدون و لها أصل نبوى مجمع عليه – و حمايتها ، فيه منع لوقوع أى شجار بين المسلمين بشأنها . وثانيهما باستبعاد ما لا يتطابق تطابقا مطلقا مع النص الأصلى ، وقاية المسلمين من الوقوع فى انشقاق خطير فيما بينهم ، و حماية للنص ذاته من أى تحريف نتيجة إدخال بعض العبارات المختلف عليها نوعا ما ، أو أى شروح يكون الأفراد قد أضافوها لمصاحفهم بحسن نية .

وليس معنى ذلك أن الطبعة العثمانية– فضلا عن المصحف العثمانى الأصلى – تتضمن جميع القراءات التى قد يكون الرسول ﷺ قد علمها للناس باسم السبعة أحرف . لأنها إذا كانت قد اشتملت بالفعل على القراءات التى اتفق على ان النص الأصلى كان يتضمنها فى صورته الأخيرة ، فقد استبعدت هذه الطبعة كل قراءه واردة عن طريق الآحاد ، ولا يتوافر فيها الضمان المطلوب. ولقد وفق هذا المبدأ منذ البداية بين آراء آلاف الصحابة الحاضرين وارتضوه عن طيب خاطر .

ونضيف أن هذا الاستبعاد عن النص المدون لم يكن الغرض منه ولا من نتائجه إلغاء القراءات الشفوية. بل إنه ترك الباب مفتوحا لكل من كان يؤكد انه سمع الرسول ﷺ يقرأ بقراءة معينه لكى يقرأ بقراءته الخاصة بحرية تامة وتحت كامل مسئوليته الأدبية ومن غير أن يلزم جماعة المسلمين بما يؤكد سماعه . وهذا ما أكده عثمان حين قال :أما القرآن فلم امنعكم إلا لأنى خشيت عليكم الفرقة . ويمكنكم ان تقرأوا بالحرف الذى يتيسر لكم .. ولم يتوقف المتفقهون فىعلوم الدين فى كل زمان، عن الاهتمام بدراسة هذه القراءات الفردية. ولازالت حتى اليوم يكسوها طابع التقديس وتستخدم فى مدارس اهل السنّة – لاعلى أنها نص قرآنى – ولكن كأحاديث آحاد . والسبب الذى أدى إلى استبعادها

وقت جمع القرآن أنها لم يتوفر فيها الضمان بأن النص على شكله المدون تتوفر فيه المراجعة الكافية والتصديق على صحته من ذات الرسول ﷺ أو ممن يمثله . علماً بأن هذه القراءات غير الرسمية لاتتعلق بكل سور القرآن ولاحتى بسورة واحدة بأكملها .

وكل ما عنى به الصحابة إذن لاثبات صحة النص القرآنى هو المطابقه الحرفية لكل جزء منه طبقا لما نزل ودون بإملاء الرسول ﷺ ، ثم تلى فيما بعد أمامه وحمل تصديقه النهائى قبل وفاته . وهذه الموضوعية المطلقة هى الباقية والخالدة على مدى الدهر تشهد لهم لا عليهم .

وإذا كان إعدام [1] المخطوطات الفردية يبدو فيه شيء من القسوة فى الوقت الذى لم يحدث بالفعل أى تحريف على الإطلاق ، فإنه يدل على أن عثمان كان بعيد النظر وعميقا فى إدراك حقيقة الأمور. ويرجع فضل تمتع المسلمين اليوم بوحده كتابهم واستقراره، الى هذا العمل المجيد من جانب عثمان . وما أضيف الى المصحف العثمانى من علامات خارجية ، ووجود بعض الحروف الزائدة أو الكلمات المضغمة أو الكتابات القديمة التى اقتصرت على كتابة المصاحف وحدها فى جميع نسخ القرآن اليوم المطبوع منها والمخطوط ،يعد شهادة بليغة على الأمانة التى انتقل بها البناء القرآنى من جيل الى جيل حتى وصل إلينا بهذا الكمال المنقطع النظير. وان النص باق كما هو على الدوام يتحدى الزمن .

***

[1] الواقع أنه لم يقم بهذا الإجراء من تلقاء نفسه ومن غير استشارة الناس ، فقد قرر على بن أبى طالب فى إحدى خطبه أن هذا الإجراء لم يتخذ إلا باتفاق جميع الصحابة الحاضرين ، وأنه لو ان عثمان لم يقم به لقام به عليّ نفسه (ابن أبى داود ص ١٢-٢٢)

الفصل الثانى

كيف تم تبليغ المبدأ القرآنى الى العالم

كل الدنيا تعرف بصفة عامة ما هو المبدأ القرآنى الذى نسميه الإسلام . وغالبا ما تقتصر هذه المعرفة على السمات الخارجية. فيقال إن الإسلام هو ذلك الإصلاح الدينى والإجتماعى والأخلاقى الذى بمجرد ان ظهر على ساحل البحر الأحمر فى بداية القرن السابع الميلادى ، سار بخطوات منتصرة نحو الشمال والجنوب ونحو الشرق والغرب حتى إنه انتشر فى نصف العالم المعروف فى ذلك الحين فى فترة قصيرة نسبيا.

هذا الحدث التاريخى الجليل الذى لا مثيل له على مر الزمان ، قد أثار اهتمام الإنسانية جمعاء، كما أثار فضول مؤرخى الأخلاق والأديان ، فحاولوا ان يجدوا له شبيها فى القديم دون جدوى . و قارنوه أحيانا بفتوحات الأسكندر المقدونى . إذ كانت واسعة وسريعة و لكنها لم تأت بأى تغيير سواء فى أفكار الشعوب أو عاداتها ، و ما لبثت هذه الفتوحات أن زال أثرها عند أول بواكير الإسلام .

فلم تتجاوز أعمال الإسكندر الأكبر مجال التعمير الحضارى بإقامة مدن عظيمة فى الشرق حيث ساد الرخاء الاقتصادى وقتا طويلا ، أما مجموعة الشعوب و الفلاحون فقد احتفظوا بطباعهم من حيث اللغة و الأخلاق و النظم السياسية و الاقتصادية . و حتى فى المدن لم تتأصل الأفكار و العادات اليرانية إلا فى اقلية من التجار الرأسماليين. ثم ان المستعمرين الإغريق أنفسهم قد خضعوا فيما بعد لفاتحين آخرين . و إن هذه المدن دمرت تدريجيا فى ظل حكم الإمبراطورية الرومانية.أما فى المجال الفكرى فإن الإسكندر لم ينقل معه الفكر اليونانى و إنما تبنى بدون قيد و لا شرط الأفكار التى كانت سائدة فى البلاد المغلوبة فى ذلك الوقت و اعتنق عقائدها . و لم يكن خلفاؤه خيرا منه إذ لم يغيروا شيئا على الإطلاق. وخلال الحكم اليونانى و الرومانى وجدت الأفكار الفلسفية و الدينية- وهى مذاهب شرقية بحتة - الفرصة مواتية لكى تنتقل عن طريق اليونانيين الى أوروبا باسم الأفلاطونية الجديدة أو المسيحية . ولهذا يحق لنا أن نقول إن الشرق فى الحقيقة هو الذى غلب فاتحيه.

ثم جاء الإسلام فتغير كل شىء بين يوم و ليلة . و لم يقتصر على الواجهة السياسية و الإقتصادية فقط ، و إنما تغلغل فى أعماق هذه الشعوب النفسية : فاللغات والأفكار والقانون والآمال و العادات وتصور العالم و فكرة الله . كل ذلك قد طرأ عليه تغيير جذرى سريع . و لم يقتصر هذا التأثير على النفوس التى آمنت به ، بل إنه كان

ينزع دائما إلى الانتشار و كسب الأتباع الجدد كلما أتيحت للإسلام الفرصة لكى يظهر فى بساطته و نقائه .

و لكن هذه الحقيقة تتعارض مع رأى ذائع الانتشار و تلوكه الألسنة فى الغرب من أن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف . بينما التأثير الذى يمارسه الإسلام على النفوس فى الوقت الحاضر هو خير دليل على أن له قوة ذاتية و توافقا فريدا مع الطبيعة البشرية و حقيقة الأشياء .

و لقد حدث فى السنوات العشر الأولى من الدعوة الإسلامية أن قامت القوى المعادية تصب أحقادها و تستخدم كل عنفها لاضطهاد الدعوة الناشئة و تعذيب أتباعها ، فى حين أن العرض البسيط لمبادىء الإسلام كان يجذب كل يوم مسلمين جدد رغم كل العقبات. و تشهد هذه السنوات بمدى البطولة و التسامح اللذين كان الرسول ﷺ والمسلمون يتحملون بهما سخرية قومهم و سبهم ، فضلا عن العزلة و المقاطعة التى فرضت عليهم مع استخدام أقسى أنواع التعذيب و التنكيل ، مما أجبر مئات المسلمين ومنهم أشراف قريش على أن يبحثوا عن ملجأ أمين بالقرب من ملك الحبشة .

و لكن المثل الأخاذ فى هذه الحقبة الذى يدل على الأثر العجيب لهذا النداء السلمى ضربه لنا سكان يثرب . فمن قبل أن يروا وجه الرسول الكريم ﷺ ، و من قبل أن يسمعوا صوته الندى ، و بمجرد أن سمعوا التنزيل القرآنى على لسان حجيجهم ، أقبل عرب المدينة على الإسلام ،و تلقوا القرآن بشغف حتى لم تبق أسرة واحدة إلا و كان من بين أفرادها عدد من المؤمنين . و أكثر من ذلك أن العداوات و الخصومات التى ظلت مشتعلة بينهم ما يقرب من ربع قرن، قد انطفأت فجأة بنفحة ربانية ، و أصبحوا بنعمة الله إخوانا . و كانت العبادات الإسلامية التى لم تمارس بمكة بسبب الاضطهاد – تقام جماعةً على مسمع و على مرأى من الناس جميعا فى المدينة . و فى هذا الوسط الكريم استُقبل جميع المهاجرين بحفاوة ، بعد أن تركوا ديارهم و أموالهم ، و بعد أن أوذوا بمكة أشد الإيذاء .

و حتى ذلك الوقت كان كل شىء يمر بسلام على الأقل من جانب المسلمين ، ولم يكن هناك ما ينبىء عن إمكان الالتجاء إلى القوة . بعد أن اطمأن الرسول ﷺ على مصير أتباعه ووصولهم إلى بر الأمان ، حتى اعتقد أن المطلوب منه البقاء بمكة والاستمرار فى دعوته ، إلا أنه تلقى الأمر الإلهى بالهجرة فى اللحظة التى بدأ فيها تنفيذ مؤامرة على حياته. و بعد أن نجا من هذا الخطر بمعجزة ، ألم يكن ينبغى عليه أن يفكر فى الإنتقام من أعدائه ؟ كلا . و إذا تتبعنا نشاطه بعد الهجرة نجد أنه كان يوجهه لأعمال سلمية نبيلة و بناءة : منها تشييد مسجده ، و تنظيم المجتمع داخليا و سلميا ، و تنفيذ

فريضة الصيام ، ووضع نظام الأذان . و كل شيء كان يبدو و كأن المسلمين قد أداروا ظهورهم عن مكة نهائيا ، حتى فى قبلة الصلاة ، إلى أن حان منتصف العام الثانى للهجرة ، حيث بدأوا يعترضون قوافل قريش تمهيدا لمنازلتهم . .

من أين جاء هذ التغيير المفاجيء ؟

لا يمكن تفسير هذا التحول إلى نفسية الرسول ﷺ فقد اتفق المستشرقون على أن الإجراءات الحربية ليست من طبعه. بل إن تسامحه و عفوه عن المشركين كثيرا ما جلب عليه لوما من القرآن . (الأنفال ٦٧ و التوبة ٨٠ ، ١١٣) . كما أن الأثر نقل إلينا كثيرا من عفوه تجاه جرائم ارتكبت ضد شخصه أو ضد ذويه [١] . و لا يعزى كذلك إلى نفسية الشعب العربى الذى يتميز بالروح الحربية كطبع أصيل فيه . إذ أن العلماء لا يؤيدون مثل هذا الافتراض فقد أثبتوا أن الدماء تثير الفزع فى نفوس العرب و لا سيما أعراب الصحراء. أما الحرب عندما تفرض عليهم فإنهم يقبلونها بدلا من تحمل الذل و العار .

فلا بد أن شيئا ما قد حدث فى تلك الفترة أدى إلى الموقف الجديد . و الواقع أن القرآن يجسد أمامنا مشهداً مثيراً للغاية ، إذ ينقل إلى أسماعنا صوت استغاثة من الرجال و النساء و الولدان ' الذين أسلموا وهم بمكة و لا سند لهم يعينهم على الهجرة أو على دفع الظلم عنهم ، و يتعذبون بإيمانهم ويطلبون العون الإلهى لنجدتهم . فلقد كان الغرس القديم – الدرس و القدوة – مثمراً و هو بعيد عن أية دعاية جديدة. وكلما خفق الإيمان تحركت العداوة والقسوة لإخماده بدون رحمة ..ماذا يكون الحال إذن . . ؟ أيحق للمهاجرين و الأنصار و هم فى مأمنهم أن لا يعيروا لمصير إخوانهم بمكة أى اهتمام ؟ هل يجوز منطقيا أن تحرم ' الحقيقة ' و الفضيلة ' من حقهما فى تلقى العون ، و أن يترك الاستبداد يشهر سلاحه ضدهما ؟

و مع ذلك فإن هذا العون لم يقدمه المسلمون فى المدينة بسهولة على الأقل فى صورته الحربية . و يكفى أن نرجع إلى القرآن لكى نرى مدى التردد و التراجع من جانبهم . . ولكن فريضة التضحية العظمى كان قد حان وقتها ، و أراد الله أن يفصل فى الصراع القائم بين الحق و الباطل. فبقدر ما ظلت الاضطهادات ذات طابع فردى وخاص، التزم المسلمون مدة إقامتهم بمكة ، بالامتناع عن أى رد فعل عنيف ، و تحملوا

---

[١] منها عفوه عن مبعوث قريش الذى جاء بعد بدر لاغتياله ، وعن اليهودية التى دست له السم. والأخرى التى دفعت ابنته زينب فأجهضتها. وعفوه عن الذين جاءوا بالإفك ، وعن أهل مكة وقت الفتح (أنظر " محمد والقرآن" سان هيلير ص ١٢٥-١٣٠).

جراحهم ببسالة . أما و قد اصطبغت كراهية المشركين بصبغة العمومية وتحولت إلى حرب ضارية ، فقد أذن للمسلمين - بعد عشر سنوات من الصبر الجميل - أن يهبوا للدفاع الجماعى [1] عن كيانهم و للذود عن إخوانهم الذين لا سند لهم . و لا شك أن الحكم الموضوعى يقر بأنه لا لوم على مثل هذا الموقف الدفاعى البحت المتفانى فى السمو . تلك هى الظروف التى انطلقت فيها شرارة الحرب المسلحة الأولى.(النساء١٣، ٧٦-٧٨ والأنفال ٧-٨ و ٤٩ و الحج ٣٩-٤٠ و البقرة ٢١٦-٢١٧).

و لكن السؤال يتركز أساسا فيما إذا كان التشريع القرآنى قد تطور فيما بعد ، فوسّع حق الدفاع عن النفس بحيث شمل كل عدوان .

يبدو أن معلومات العالم الغربى غير وافية فى هذه النقطة ، إذ يسود الاعتقاد أنه يحق للشعوب الإسلامية - بل و حتى طبقا لكتابهم المقدس - أن يستخدموا السلاح سواء لفرض دينهم على الناس أو للقضاء على كل من لا يعتنقه، ويطلقون على ذلك ' الحرب المقدسة ' و هى عبارة يجعلونها تتوافق مع كلمة 'جهاد ' فى حين أن هذا التعبير الذى يقصد به ' بذل الجهد ' ليست له أية علاقة بالناحية العسكرية ، لأنه ورد فى السور المكية إما لبذل الجهد فى الوعظ و الدعوة و الجدل بالحسنى ﴿ **فلا تطع الكافرين . وجاهدهم به جهادا كبيرا - الفرقان ٥٢** ﴾ ، و إما لبذل الجهد الشخصى ذى الطابع الأخلاقى البحت ﴿ **و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - العنكبوت آخر آية** ﴾ . أما ما يعبر عن الحرب الحقيقية فهى كلمة 'قتال' .

و الرجوع إلى النص القرآنى يوضح لنا الموضوع و الهدف و الحدود التى يقصدها التشريع القرآنى من وراء القتال . فيقول ﴿ **و قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم. و لا تعتدوا - البقرة ١٩٠** ﴾﴿**فإن انتهوا [فأعفو عنهم] فإن الله غفور رحيم. . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين - البقرة ١٩٢ - ١٩٣** ﴾ ﴿ **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، و ألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا - ستجدون آخرين . . . فإن لم يعتزلوكم و يلقوا إليكم السلم و يكفوا أيديهم ، فخذوهم و اقتلوهم حيث ثقفتموهم ، و أولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا - النساء ٩٠ - ٩١** ﴾ . وفى موضع آخر نجد نفس التفرقة ﴿ **لا**

---

[1] كان صدور الأمر العام بالقتال فى ظروف غير مواتية ، بحيث لايمكننا أن نوافق الدكتور سنكلير بأن القانون القرآنى كان يتعدل حسب انتصارات محمد (ص ٢٧٩) . كما قلب معنى الآية (البقرة ٢١٧) التى تدين العدوان فى الأشهر الحرم (ص ٢٧٦) واعتبر وسائل قمع الإرهابيين (المائدة ٣٣) صورة جديدة للحرب تعد مرحلة ثالثة فى هذا التطور (ص ٢٧٧).

ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، و لم يخرجوكم من دياركم لأن تبروهم وتقسطوا إليهم .. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، و ظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم . . الممتحنة ٨ -٩﴾ و فى سورة التوبة نرى العناية التى أولاها القرآن فى استثناء المشركين الذين لم ينقضوا عهودهم فيصرح ﴿ **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ، و لم يظاهروا عليكم أحدا . فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم - التوبة ٤ ﴾** .

اما الموضوع الذى يحرض القرآن المؤمنين من أجله فيتضح أكثر من الآية ﴿ **ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، و هموا بإخراج الرسول. و هم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه أن كنتم مؤمنين - التوبة ١٣ ﴾** و ترتب على ذلك بطبيعة الحال أن يأمر الله المؤمنين ﴿ **و قاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة - التوبة ٣٦ ﴾** و لكن هذا القتال يتوقف بمجرد حفظهم للعهد ﴿ **فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم - التوبة ٧ ﴾** .

فلا تجد فى أى مكان إذنا بالبدء بالقتال . و إنما الأمر هنا محدد بموقف الخصم العدوانى و الأكثر من ذلك أنه حتى بالنسبة للمشركين الذين لا يرتبطون مع المسلمين بعهود و مواثيق و يطلبون حمايتهم ، نجد القرآن يطالب الرسول ﷺ بأن يبلغهم مقصدهم فى أمان ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه - التوبة ٦ ﴾** . فكل مسئوليات الحرب إذن ـع على عاتق البادىء بها . و عندما يقول القرآن ﴿ **قاتلوا الذين يقاتلونكم ﴾** إنما يقصد بذلك الذين يقاتلون قتالا فعليا و يحملون السلاح . و قد أوضحت السنة هذا الشرط بعناية فائقة وأبعدت عنه أى لبس : فالنساء والأولاد و الشيوخ و العميان و العجزة و المجانين و المزارعون فى حقولهم و المتعبدون فى صوامعهم [1] ، لا يتعرضون للأعمال الحربية أى لأى عمل يؤدى إلى التدمير بوجه عام مثل الفيضان و الحريق . . و عند تطبيق الحكم القرآنى بالعفو عن الذين يوقفون القتال ، أوصى النبى ﷺ بتحريم ملاحقة العدو الهارب من ساحة القتال .

إذن لقد وضح الهدف من هذا التشريع . . ألا و هو ' إبعاد الخطر ' . فالإسلام يدين روح التدمير و روح السيطرة (القصص ٨٣) ، و لا يريد فرض ' أيديولوجية عالمية ' (يونس ٩٩) ، فالخلاف سيظل قائما بين الناس (هود ١١٨) ، و الإيمان

---

[1] إذا كان يقصد بالحرب محاربة الدين ، ألم يكن من الأولى أن يكون هدفها هم رجال الدين أنفسهم.

سيقتصر على قلة منهم (يوسف ١٠٣) . و الإسلام إنما يقف فى وجه من يعترض طريق الحرية و يعرض الناس للفتنة لا العكس . (البقرة ٢١٧) .

هل معنى ذلك أن ' هداية ' الناس أو ' غوايتهم ' لا تهم المسلمين ؟ هذا هو التفسير الذى يحاولون تقديمه أحيانا عن سماحة المسلمين إزاء الأديان الأخرى . إنها طريقة أخرى لإنكار الطابع الحقيقى للقرآن . . إنهم ينسبون إليه إما التشدد و المبالغة فى الرغبة فى استمالة الناس نحو مبادئه ، و إما فتور هذه الرغبة واللامبالاة . غير أن موقف القرآن الحقيقى لا يتمثل فى أى من هذين الطرفين . إنه يقرر وجوب الدعوة إلى الحق و إلى الفضيلة (آل عمران ١٠٤) ، بهمة و نشاط (الفرقان ٥٢) و بأسلوب يتسم بالحكمة و بالإقناع و باللين ، وللغير أن يؤمن بما يسمع أو لا يؤمن ، وعليه بعد ذلك ألا يضيق بحرية المؤمنين فى إقامة شعائرهم. على أن يتحمل كل فرد مسئولياته كاملة . (البقرة ٢٧٢ و المائدة ١٠٥) .

فالمبدأ القرآنى هو مبدأ التسامح . و قد تكون هذه التسمية أقل من الحقيقة فى بعض النواحى ، إذ نلاحظ أولا : أن الشعوب التى لا تقبل العقيدة الإسلامية ، و إنما تخضع سلميا لتشريعها المدنى فإنهم يكونون على قدم المساواة مع المسلمين أنفسهم ' لهم ما لنا و عليهم ما علينا ' . ثانيا : أما الذين لا يقبلون العقيدة الإسلامية و لا التشريع الإسلامى فإن القرآن يطالبهم بموقف مسالم من جانبهم لكى يوفر لهم معاملة أساسها العدل و البر ﴿ **أن تبروهم و تقسطوا إليهم** - المجادلة ٨ ﴾ . و أما إذا صوب الكفر ضرباته إلى العقيدة ليخمد نورها ، فهل من المعقول أن يقف الدين مكتوف الأيدى أمام ما يفنيه فناء تاما ؟ لقد عاش المسلمون التجربتين فى وقت مبكر و فطنوا إلى أنه لا يوجد ما يعادل تبادل الأفكار فى حرية و سلام . حتى قيل إن عدد الذين اعتنقوا الإسلام - أثناء صلح الحديبية - حيث كانت حدود المعسكرين مفتوحة . بلغ ما يزيد على عددهم فى السنوات السابقة مجتمعة . و على أى حال ، على كل من يدعى أنه اكتشف غرضا آخر لنظام القتال فى التشريع الإسلامى أن يذكر لنا الرقم التقريبى للأتباع الذين دخلوا الإسلام بفضل هذه الإجراءات القاسية .

و يمكننا أن نفترض وقوع أخطاء فى فترات الاضطرابات ، كما قد يشتبه فى بعض الانحرافات فى الأجيال التالية . و لكن لنسمع اعتراف أحد النقاد المعاصرين ممن لا يعلنون تأييدهم للنظام الإسلامى ' رغم العقبات الرسمية التى كانت تحول دون اعتناق الإسلام فقد كان الناس يدخلون فى هذا الدين أفواجا . . . ولم يحدث قط أن عربيا - وهو

فى أوج حاسه لدينه الجديد-أن فكر فى أن يطفىء فى الدم المسفوك عقيدة دينية أخرى .. لم يحدث قط أن زاول الخليفة أى اضطهاد تجاه النصارى أو تجاه الزنادقة '.[1]

و على أى حال ، فإن البؤس و الآلام التى يمكن أن تتعيها فى المعارك الإسلامية كانت طفيفة والحروب كانت سريعة ، مما يحملنا على الإعتقاد بأن الأبواب كانت مواربة أمام الفاتحين المسلمين ، و ما كان عليهم إلا دفعها لتفتح على مصراعيها .. و لنتذكر أن حركة الإصلاح البروتستانتى التى لم تتناول بالتعديل إلا عدة مبادىء فقط من المسيحية - قد كلفت أوروبا خلال قرن و نصف القرن من الآلام والضحايا ما يربو على ذلك بكثير .

إن كل بنيان مزيف إذا عاش برهة من الزمان بفضل القوة التى تسانده ، لا بد و أن ينهار حين تختفى من حوله العناصر الغريبة عليه و التى ساعدت على بقائه. فماذا نرى اليوم بعد أربعة عشر قرنا ، و بعد توقف التوسعات الإسلامية ؟ فإن البناء الاجتماعى الذى تعرض طوال التاريخ المديد لعناصر التدمير الداخلية و الخارجية فضلاً عن البناء الدينى و الأخلاقى لا يزال قائما و ثابتا فى صلابة بحيث قيل بحق ' إنه لم يحدث منذ بداية الهجرة أن مسلما قد تحول عن دينه إلى دين آخر [2] ' . و على أى حال نستطيع أن نؤكد أن المسلمين اليوم أقل استعدادا لأن يتخلوا عن عقيدتهم من أتباع أية ديانة أخرى .

أليس مما يناقض القوانين النفسية أن تنسب هذا التمسك إلى نوع من الاستسلام الوراثى يرجع أصله إلى إكراه وقع على آباء المسلمين الأولين وأنهم يحتفظون بذكراه منقوشة فى أعماق أذهانهم ؟ . . لا جدال فى أنه يتحتم علينا أن نسلم بوجود بعض الصفات الذاتية التى مكنت للإسلام من هذا الانتشار و من هذا الثبات رغم البعد التاريخى لمولده .

***

---

(1) جوتييه " أخلاق وعادات المسلمين" ص ٢٠٧-٢٠٨ ، ٢١٧.

(2) "خطاب افتتاحى" مترجم إلى اللغة الفرنسية ومؤلفه " بورتر" فى مقدمة " القران" تأليف " دى راير"

البـــاب الثـــانى

القرآن

من خلال مظاهره الثلاثة :

الدينى و الأخلاقى و الأدبى .

تمهيد

إذا كان القرآن قد أثر دائما على عقول جد مختلفة ، فلا بد أن تكون له جاذبية خاصة .

- بتوافقه الكامل مع طريقة الناس فى التفكير و الشعور .
- وباستجابته لما تتطلع إليه النفوس فى شئون العقيدة و السلوك .
- وبوضعه الحلول الناجعة للمشكلات الكبرى التى تقلق بالهم .

و بمعنى آخر لا بد أنه ينطوى على ما يشبع حاجة الناس إلـى **الحق والخير والجمال** ، بما يجمع من صفات العمل **الدينى و الأخلاقى و الأدبى** فى آن واحد .

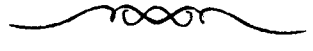

الفصل الأول

الحق أو العنصر الدينى

إن أهم ملامح القوة الجارفة التى تتميز بها الدعوة الإسلامية تكمن - فى رأينا - فى الطريقة التى قدمت بها الحقيقة الدينية بهدف وضع نهاية للخلافات المثارة حولها .

فبعد أن أجابت الديانات السماوية على السؤالين العقيديين الرئيسيين اللذين اختلف وتنازع بصددهما الفكر الفلسفى : ' ما هو مصدر الكون ؟ . . وما مصيره ؟ ' ، أسست هذه الديانات على الإجابة نظاما كاملا للعقيدة و العبادة اختلف باختلاف الأزمنة و المجتمعات. حتى أن الصورة التى وصلت إلينا عنه قد تغلغل فيها التباين و الإختلاف فى أشكاله وحتى فى مبادئه الجوهرية .

و لقد ركز القرآن على فكرة أن رسل الله جميعا يعزز بعضهم بعضا ، ويتضامنون فى تبليغ حقيقة واحدة ، و أن الأنبياء أمة واحدة تحت لواء الله الواحد . وأن هذه الوحدة كانت تجمع سائر الناس فيما مضى، و إنما الأجيال اللاحقة هى التى بذرت الخلاف و الفرقة .

و القرآن و هو يعرض دعوة الإسلام بطريقته المنطقية لا يعرضها على أنها دعوة محمدية جديدة ومستقلة تنافس الموسوية و المسيحية و تنازعهما الحقيقة الدينية ، وإنما يقرر القرآن أن المسلم هو الذى يؤمن فى آن واحد بموسى و عيسى و جميع رسل الله، و يوقرهم بلا تمييز بينهم ، و يؤمن كذلك بكتبهم ومبادئهم جميعا . أى أن المسلم يستسلم لله و لإرادته التى أعلنت متتابعة على ألسنة الأنبياء و المرسلين . وبهذا يسمو الناس فوق الإنشقاق و التنافس، و يجدون فى هذا الإجماع التوازن الذى لا غنى عنه لراحة الضمائر، لأنه طالما أن عقيدتى مطابقة للعقيدة التى يعلنها هؤلاء الرسل فقد انتفت الأسباب التى تبرر صدى لهذه العقيدة . . .

القرآن إذن يدعو إلى العودة إلى الوحدة الدينية الأصلية التى يستجيب لها ويعتز بها ذوو النفوس السامية ، وتتفتح لها قلوبهم المتلهفة . ولا شك ان هذه خطوة أولى ضرورية ثم تأتى بعد ذلك أهمية النظام والمنهج فى الإسلام.

ونرى أن نقطة الإنطلاق والنواة التى يدور حولها نظام الإقناع القرآنى تتركز فى هذه الفكرة الرئيسية: وهى ان صانعا يتصف بالكمال المطلق ، والقوة المطلقة ، والخير المطلق ، خلق كل شىء فى هذا الوجود ، وأخضعه لإرادته خضوعا مطلقا . وسر نجاح هذه الفكرة أنها تنسجم تماما مع الوحدة الدينية التى يستهدف الإسلام إعادتها

من جديد الى واقع الحياة ، حيث أن الفرقة لاتنشأ إلا فى التعدد. فضلا عن أن سمو هذه الفكرة فوق كل الإعتبارات الضيقة فى الديانات المختلفة ، تذكر الناس بالحقيقة الخالدة التى عرفوها أو التى يسهل عليهم معرفتها . غير ان هذا التوحيد الأولى أو هذه الديانة الفطرية -كما يسميها القرآن - كانت محجوبة ومغمورة تحت ركام من معتقدات وعبادات كانت تؤدى الى عدد لايحصى من الآلهة عند العرب.. كما أن أهل الكتاب نجحوا هم أيضا فى الجمع بين توحيد الله الخالق وبين عدد من الآلهة الأخرى المعبودة . مما جعل فى نظر العرب القول بان الآلهة إله واحد قولاً عجيباً وكاذباً لدرجة أنهم زعموا أنهم لم يسمعوا به فى مجتمعهم ، ولا فى الديانات السماوية السابقة . ولقد استخرج القرآن هذه الفكرة المغمورة وأعاد إليها صفاءها ونقاءها من كل شائبة . وهو بهذا لم يخترعها ولم يكتشفها ، وإنما اقتصرت طريقته على حذف الشوائب لاعلى إضافة الجديد.

وهكذا نرى - كما ألمحنا - أن قوه الفكرة الدينية تتركز فى طابعها المتأصل ، إنها تدفعنا إلى الإيمان بها بنفس القوة التى تغوص بها جذورها فى أعماق معتقدات آبائنا الأولين الموغلة فى القدم. ولهذا نرى القرآن - فضلا عن استخدامه للتدليل المنطقى - يؤسس دعوته الى التوحيد على تاريخ الأنبياء فى كل الأزمنة السابقة فيثبت بوضوح ان العقل والنقل يشاركان القرآن فى اثبات عقيدة التوحيد ، ورفض الوثنية والإشراك بالله على اختلاف صورهما .

ولكن كيف يمكن ان نفسر ان قضية خطيرة كهذه تستند الى المنطق ورسوخ الأصل وتتجدد على الدوام بتعاليم الرسل الإيجابية - يمكن ان تختفى بهذه السهولة من الأذهان لتحتل مكانها أفكار مناقضة لها ؟ السبب هو أن الإنسان بطبيعته يشعر انه مدفوع الى الإعجاب بالقوة الخلاّقة أينما وجدها. و من الإعجاب إلى العبادة ، المرحلة متصلة وليس فيها إلا اختلاف فى الدرجة ، فالقوى الطبيعية كالشمس والشجر والنبع ، عجائب تأخذ بألباب المتأملين ، فما بالك بالخوارق التى تتم على يد ساحر أو صانع للمعجزات ؟ فبإرشاد من الحواس الخارجية ، يميل الإدراك بسهولة إلى أن ينسب أصل أية ظاهرة إلى مصدرها المباشر أى إلى الشىء الذى انطلقت منه كأثر لسبب حقيقى فعال ومستقل . ولا يرتفع الإدراك من تأثير الظاهرة إلى مصدرها ، ومن الملموس إلى المعقول ، إلا بجهد فكرى إرادى و لكن من النادر أن يبذل هذا الجهد . بينما من أهم أهداف القرآن تزكية هذا الجهد و دعمه بقوة كبيرة .

فهو يذكرنا دائما باستحالة خروج أى مخلوق من العدم من غير قوة الخالق ، باستحالة أن يخلق الشىء نفسه ، أو أن يخلق أى شىء على الإطلاق فى السماوات أو الأرض ، و لا حتى أية حشرة على فرض تضافر كل القوى و الجهود من أجل هذا

الغرض ، بل إذا استولت ذبابة على شيء يملكه أقوى إنسان فى الدنيا فلن يستطيع أن يستعيده منها ، فالجميع - ما عدا الله - لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات و لا فى الأرض لا بالمشاركة و لا بالتبعية . ولا أحد سوى الله يستطيع أن يغير نظام الطبيعة ولا الإبقاء عليه . و القوانين الأزلية التى لا نستطيع بتدخلنا أن نعدل منها شيئا ، فإن ثباتها بالنسبة للخالق - شأن كل قوانين السببية - متوقف على كلمة واحدة من إرادة الله سبحانه . فلو شاء لجعل ماء المطر ملحاً أجاجاً . ولأسقط السماء فوق الأرض ، ولأذهب الجنس البشرى كله ، ولجاء إلى الأرض بمخلوقات أخرى مكانه ، فلله القوه جميعا . إذ ان الأسباب القريبة والبعيدة ، ومقاليد الأمور كلها بيد هذا الخالق العظيم واليه مصيرها ومنتهاها .

بسماع هذا الحديث الكريم قد نميل الى الاعتقاد فى أن هناك قدراً محتوماً لايجدى معه اى تدخل بشرى ، وانما هى سلبية كاملة مفروضة على العالم ..حيث تختفى تماما أية رابطة سببية بين الأشياء ..

هذا الاعتقاد - فضلا عن مجافاته للعقل ومناقضته للعلم - يتعارض مع مجموعتين من الآيات القرآنية.فالأولى تدعو الى بذل جهد أخلاقى دائم ، والثانيه تفسر الظواهر الطبيعية والتاريخية بعضها ببعض . والحل السوى هو الذى يحدد لكل حقيقة من الحقائق المسلم بها مداها ومرماها . فلا نمنح الإنسان والعالم قدرة ذاتية مستقلة تمام الاستقلال ، ولا نصف الإنسان بالعجز مطلق . وهذا هو الوسط المعقول الذى يدعونا القرآن الى الوقوف عنده .

وهناك سوء فهم لرفض الرسول ان يكون بمثابة صانع للمعجزات ، كما قد يكون هناك تلميح من هذه النقطة على أن الرسول ﷺ لم يقدم المعجزات أو البراهين الكافية لإثبات ربانية دعوته. والحقيقة أنه فى كل الظروف غير العادية التى تصاحب ظهور الرسل و الأنبياء لتبليغ رسالتهم و تأمين نجاحها - لا يرى القرآن فى ذلك كله عملا بشريا . إذ بقدرة الله تتم هذه المعجزة أو تلك ، على أيدى هؤلاء الرسل أو على لسانهم . . ففى رسالة الإسلام فى أول الأمر كانت تلاوة بعض الآيات القرآنية تحول الكفار المعاندين من الموت الوجدانى إلى الحياة الروحية . فليس محمد ﷺ هو الذى فتح قلوبهم ، و لا هو الذى جعل المسلمين إخوة متحابين فى الله ، و لا هو الذى حقق نصر الإيمان على الكفر والشرك . إنما هذه الأعمال تتم بإذن الله و إرادته . و كذلك المعجزات التى تمت على أيدى الرسل و الأنبياء و منهم محمد ﷺ . . فلا فضل فيها لفرط ذكاء الرسول و لا لسعة علمه ، إنما الفضل أولاً و أخيراً لتدخل كريم ورحيم من جانب الله تعالى ، المصدر الحقيقى لكل خلق و لكل علم و لكل خير .

و هكذا بفكرة كمال الله المطلق و صفاته المطلقة ، أسس القرآن الشطر الأول من الحقيقة الدينية العامة. و تتلخص فى أنه لا شىء فى هذا الوجود يستحق العبادة والخضوع سوى الله الواحد القهار .

و بنفس الفكرة أسس القرآن الشطر الثانى من الحقيقة الدينية العامة : و هى الإيمان بالحياة الأخروية ، حيث نقدم لله أعمالنا و نتلقى منه الجزاء الذى نستحق. وهنا نميز بين نقطتين : خلود الروح و بعث الجسد. و لم تقابل الدعوة الإسلامية معارضة تذكر بشأن النقطة الأولى ، سوى خرافة ' الهامة ' التى كانت سائدة عند العرب على أنها ظل الروح التى كانت تحوم ليلا فوق قبر القتيل قائلة ' أسقونى ' فإذا اقتُص من القاتل امتنعت عن الظهور . و لقد نفت السنة هذا الاعتقاد الجاهلى ' لا هامة' و حكمت ببطلانه.

وأما النقطة الثانية ، فقد ركز عليها المشركون معارضتهم و سخريتهم . وقدم القرآن حجته الفاصلة من كتاب الطبيعة المفتوح . . . فطالب العقول أن تتدارس الأطوار التى يمر بها الإنسان فى دورة الحياة منذ أن كان علقة إلى أن أصبح خلقاً جديداً فى أكمل صورة عند ميلاده . هل يصعب على الذى بدأ الخلق كله أول مرة على غير مثال سابق أن يعيده مرة أخرى . . ؟ و يوجه القرآن الأنظار إلى الأحداث الموسمية : الأرض وهى جافة و جرداء تتحول إلى أرض خصبة . . و يؤسس عقيدة البعث ليس فقط على قرار ربانى ألزم الله تعالى به نفسه ﴿ **بلى وعدا عليه حقاً - النحل ٣٨** ﴾ و إنما على أحد مستلزمات العدل الإلهى و الحكمة السامية ﴿ **ليبين لهم الذى يختلفون فيه - النحل ٣٩** ﴾ ﴿ **ولتجز كل نفس بما كسبت - الجاثية ٢٢**﴾ وإلا لكانت حياة الإنسان بلا غاية و بلا جدوى .

و هكذا تأسست الديانة الموحدة التى يدعو إليها القرآن . و إذا كانت الفكرة الدينية قد بقيت فى جوهرها كما كانت دائما ، فلا شك أنها حققت تقدماً حقيقياً بالطريقة التى قدمها بها القرآن ، ليس فقط لأنه ساق البراهين و الأدلة القادرة على إقناع أصعب العقول و على تحريك أقسى القلوب ، و ليس فقط لأنه قدم نظراته الواسعة و الثاقبة عن الكون السماوى و الأرضى واستخلص مواعظ و دروساً من كل مظهر من مظاهر الخلق الداخلية و الظاهرية ، وانما بدت مادة الدين ذاتها المتعلقة باختصاصات الله تعالى ومآل الروح فضلاً عن معنى الألوهية الذى أصبح يمتاز بصفاء و نقاء و قدسية خاصة تبعد به عن أى تجسيم فظ و له قوة جارفة أخّاذة تحلق بالإنسان إلى عالم الروح السامى - بدى كل هذا و كأنه قد اكتسب روحا جديدة لم تكن معهودة من قبل .

* * *

الفصل الثانى

الخير أو العنصر الأخلاقى فى القرآن

ولكن النفس الإنسانية بجانب حاجتها إلى المعرفة و الاعتقاد ، تحتاج فى إلحاح إلى القاعدة العملية القادرة على توجيه نشاط الانسان سواء فى تصرفاته مع نفسه أو فى علاقاته مع غيره أو مع خالقه . و لقد قدم القرآن هذا النظام بأوفى و أدق طريقة ممكنة ، وخط فى هذه المجالات خطاً واضحاً يسلكه الإنسان فى أمان و اطمئنان . وبلغت أهمية الجانب العملى فى القرآن ، أن يتكرر ذكره كثيراً و بصراحة كشرط لا غنى عنه للفلاح فى الدنيا و السعادة الخالدة فى الآخرة . و سوف نوضح بعض الجوانب التى أثرت بها الدعوة القرآنية على الناس بفضل مادتها و محتواها النفيس ، وبفضل أسلوبها فى عرض الحقائق .

لقد غرس الله داخل كل منا بصيرة أخلاقية غريزية ، تجعلنا نقدر و نحب الفضيلة فى ذاتها و فى غيرنا -حتى و ان عجزنا عن الارتفاع إلى مستواها . كما تجعلنا ننفر من مشهد أى سلوك هابط . . اننا نكره فى أنفسنا عيوبنا الذاتية ، و نلتمس لأنفسنا المعاذير لتبرئة أنفسنا منها، لأننا لا نقبل أن نوصم بأية رذيلة .

فعلى هذا الشعور العام القادر على التمييز بين العدل و الظلم و بين الخير والشر ، يستند القرآن فى أغلب الأحيان لإرساس نظامه الأخلاقى ، ويعتمد عليه كذلك فى تعريف فكرته العملية فالرسول ﷺ ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر و يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث - الأعراف ١٥٧** ﴾ (بمعناها الحقيقى والمجازى) ﴿ **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء - الأعراف ٢٨** ﴾ . . . و يكفى أن نذكر أن استناد القرآن على الضمير الأخلاقى - فى عمومه - فى التمييز بين الخير و الشر قد ذكر فى أكثر من خمسة و أربعين موضعا منه.[1]

و نظرا لأن هذه الحاسة الفطرية ليست دائما بنفس القوة و الفاعلية عند كل الناس لكى تلزمهم بالخضوع لقاعدة السلوك ، فقد اقتضى الأمر وضع منهج كامل فى التربية يستند إلى الذكاء و العقل بجانب الحاسة الخلقية حتى إذا غابت هذه الحاسة تبقى فكرة الواجب العام. و أفضل طريقة لإيقاظ هذه الفكرة و لجعلها تسمو بمشاعرنا ، هى أن نستعين بتأييد ذوى الاختصاص لها من الحكماء و الأنبياء فى كل زمان . فليس بمحض

---

[1] انظر على سبيل المثال كتابنا " دستور الأخلاق فى القرآن" الفصل الثالث - الفقرة الثالثة "أ"

الصدفة أن محمدا ﷺ يدعو إلى ما سبق أن دعا إليه الرسل السابقون ﴿ **يريد الله ليبين لكم، و يهديكم سنن الذين من قبلكم - النساء ٢٦** ﴾ و يقول القرآن للرسول بعد أن عدد ما سبقه من الرسل ﴿ **أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده - الأنعام ٩٠** ﴾ و الواقع أننا لا نجد مبدأ أخلاقيا ينقله لنا القرآن على أنه كان ضمن تعاليم هذا الرسول أو ذاك الحكيم ، إلا وأورده القرآن فى موضع آخر كواجب تلتزم به جماعة المسلمين .

وسوف نوضح فيما يلى القانون الأخلاقى كما جاء به موسى و جاء به عيسى عليهما السلام ، كما ورد ذكره بالتوراة و بالإنجيل ، و سوف نجده محفوظا بعناية فائقة فى آيات القرآن ، ولكن - لا على شكل كتلة واحدة - كما ورد بالوصايا العشر وبميقات الجبل - وإنما كآيات متفرقة فى عدد من السور المكية و المدنية . و فى أغلب الأحيان على شكل آيات نزلت فى مناسبة معينة بذاتها . و فيما يلى الوصايا العشر :

التوراة (سفر الخروج - الفصل ٢٠)	القرآن الكريم
١- لا يكن لك آلهة أخرى أمامى .	﴿**و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه-الإسراء ٢٣**﴾.
٢- لا تضع لنفسك آلهة مسبوكة .	﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان - الحج ٣٠**﴾.
٣- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا .	﴿ **ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم-البقرة ٢٢٤**﴾. ﴿**لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم- المائدة٨٩**﴾.
٤- أكرم أباك و أمك .	﴿ **وبالوالدين إحسانا -الإسراء ٢٣**﴾ .
٥- لا تقتل .	﴿ **ولاتقتلوا أنفسكم -النساء٢٩**﴾ .
٦- لاتزن .	﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم و يحفظوا فروجهم . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهم و يحفظن فروجهن-النور ٣٠- ٣١**﴾.
٧- لا تسرق .	﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما-المائدة ٣٨**﴾ . ﴿**ولا يسرقن . . . - الممتحنة ١٢**﴾.
٨- لا تشهد على قريبك شهادة الزور.	﴿**واجتنبوا قول الزور -الحج ٣٠**﴾
٩- لا تشته بيت قريبك..ولا شىء مما لقريبك .	﴿**و لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض -النساء٣٢**﴾ .

هذه هى أسس القانون الأخلاقى الذى يقول عنه عيسى عليه السلام ' فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا ،يدعى أصغر فى ملكوت السماوات . وأما من عمل و علّم ، فهذا يدعى عظيماً فى ملكوت السماوات .'

ولكن محاولة قصر دعوة موسى عليه السلام على هذه الواجبات الأولية يعد إقلالا من شأنها ، لأننا إذا واصلنا بحثنا سنقابل فى أماكن متفرقة منها (الخروج ٢٢ - ٢٣ ، اللاويون ١٩ -٢٥ ، التثنية ٦) أحكاما أخرى تتعلق بعمل القلب و عمل الجوارح، وتمهد بذلك لأحكام الانجيل :

التوراة	القرآن الكريم
- لا تقبل خبزا كاذبا . (خروج ٢٣:١)	﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا و الآخرة -النور ١٩﴾ . ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا - الحجرات ١٢ ﴾ .
- لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر. (خروج ٢٣:٢)	﴿ ولا تعاونوا على الإثم و العدوان - المائدة ٢﴾.
- لاتحا ب مع المسكين فى دعواه .	﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله . . . إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما . . -النساء١٣٥﴾.
- ساعد غيرك .	﴿ وتعاونوا على البر و التقوى -المائدة ٢﴾ .
- كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم (لاويين ١٩:٣٤)	﴿ وبالوالدين إحسانا ،وبذى القربى و اليتامى والمساكين و الجار ذى القربى و الجار الجنب والصاحب بالجنب و ابن السبيل ،وما ملكت أيمانكم -النساء ٣٦﴾.
- افتح يدك لأخيك المسكين و الفقير فى أرضك (تثنية ١١:١٥) .	﴿و الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل و المحروم -المعارج٧٠﴾ .
- لا تضطهد الغريب وتضايقه (خروج ٢٢ :٢١)	﴿ و بالوالدين إحسانا وبذى القربى . . -الآية السابقة ﴾ .
- لاتسىء إلى أرملة ما و لا يتيم. (خروج ٢٢:٢٢) .	﴿و ما يتلى عليكم فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن -النساء ١٢٧﴾ . ﴿فأما اليتيم فلا تقهر - الضحى -٩﴾

التوراة	القرآن الكريم
- لاترتكبوا جورا فى القضاء (لاويين ١٩:١٥)	﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل - النساء ٥٨﴾ .
-ابتعد عن كلام الكذب . (خروج ٢٣ : ٧) .	﴿ ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم . إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما .يستخفون من الناس و لا يستخفون من الله و هو معهم . إذ يبيتون ما لا يرضي من القول -النساء ٧ - ١٠٨﴾ .
- لا تنتقم (لاويين ١٩:١٨) .	﴿و الكاظمين الغيظ ،والعافين عن الناس -آل عمران ١٣٤﴾ .
- لاترتكبوا . . لا فى القياس و لا فى الوزن ولا فى الكيل (لاويين ١٩:٣٥) .	﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، و إذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون - المطففين ١ - ٣ ﴾ .
- لا تحقد على أبناء شعبك (لاويين ١٩:١٨) .	﴿ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا - الحشر ١٠﴾.
- كن قديسا طاهرا .	﴿ ولكن كونوا ربانيين - آل عمران ٧٩﴾ . ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا . والله يحب المطهرين -التوبة ١٠٨﴾ .
-تحب قريبك كنفسك (لاويين ١٩:١٨) .	﴿و لا يجدون فى أنفسهم حاجة مما أوتوا . ويؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة - الحشر ٩﴾ .
- فتحب الرب إلهك من كل قلبك (تثنية ٥:٩)	﴿ و الذين آمنوا أشد حبا لله -البقرة ١٦٥ ﴾ .

و هكذا نجد القرآن يضطلع بواجبه المبدئى و هو حفظ و تبليغ مضمون الكتب السماوية السابقة ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب و مهيمنا عليه - المائدة ٤٨** ﴾. إلا أنه وفاء لطريقته فى العرض يفضل تقديم كل درس فى مناسبته . فلنتتبع الوعظ الإنجيلى إذن و لننظر كيف أن كتاب الإسلام يعززه :

الإنجيـــــل	القرآن الكريم (ضمن آيات كثيرة آخرى)
- طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات (متى ٥: ٣)	﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا،و الذين اتقوا فوقهم يوم القيامة - البقرة ٢١٢﴾ ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا و الله عنده حسن المئاب - آل عمران ١٤﴾ .
- طوبى للحزانى لأنهم يتعزون . (متى ٥: ٤)	﴿و لنبلونكم بشيء من الخوف الجوع و نقص من الأموال و الأنفس و الثمرات. وبشر الصابرين - البقرة ١٥٥﴾ .
-طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. (متى ٥ : ٥)	﴿ و سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقي -آل عمران ١٣٣﴾
- طوبى للجياع و العطاش إلى البر لأنهم يشبعون. (متى ٥ : ٦)	﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون -الجاثية ٢١ ﴾ ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين أمنوا نحكون... فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون - المطففين ٢٩ - ٣٦﴾ .
- طوبى للأنقياء القلب (متى ٥ : ٨) .	﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم - الشعراء ٨٩ ﴾ . ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب -ق ٣٣﴾
- طوبى لصانعى السلام (متى ٥ : ٩) .	﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس - النساء ١١٤﴾
- طوبى للمطرودين من أجل البر . (متى ٥ : ١٠)	﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا.. -البقرة ٢١٤﴾ . ﴿ لتبلون فى أموالكم و أنفسكم، و لتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و من الذين أشركوا أذى كثيرا . و إن تصبروا و تتقوا فإن ذلك من عزم الأمور - آل عمران ١٨٥ ﴾ .

الإنجيـــــل	القرآن الكريم (ضمن آيات كثيرة آخرى)
- طوبى للرحماء لأنهم يرحمون . (متى ٥ : ٧)	﴿ ثم كان من الذين آمنوا و تواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة.- البلد ١٧ - ١٨ ﴾ .

و لقد قال عيسى عليه السلام الحق كل الحق عندما أكد أنه لم يأت ليلغى وينسخ و إنما ليتم ويكمل . أى أنه كان يوالى من بعدهم مهمة التطهير الأخلاقى التى بدأها المرسلون من قبله و التى كانت تتيح مجالا للتقدم و الرقى .

الإنجيـــــل	القرآن الكريم
- ليس فحسب "لا تقتل" وإنما لا تغضب من أخيك و تقول له "رقا" أو "يا أحمق" . (متى ٥ : ٢١ -٢٢)	﴿ و الكاظمين الغيظ - آل عمران ١٣٤ ﴾ ﴿و إذا ما غضبوا هم يغفرون - الشورى ٣٧ ﴾
- فإن قدمت قربانك إلى المذبح . وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك . فأترك هناك قربانك واذهب أولا اصطلح مع أخيك (متى ٥ : ٢٢ -٢٤).	﴿ إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم - الحجرات ١٠ ﴾ ﴿فاتقوا الله و أصلحوا ذات بينكم - الأنفال ١﴾ ﴿واتل عليهم نبأ بنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر -المائدة ٢٧ ﴾
- لقد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه. (متى ٥ : ٧ - ٢٩) .	﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم و يحفظوا فروجهم . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن و يحفظن فروجهن . .-النور ٣٠ -٣١﴾.
- قد سمعتم . . . لا تحنث . و أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة (متى ٥ : ٣٣ -٣٤) .	﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم- البقرة ٢٢٤﴾
- سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم . (متى ٥: ٤٣ - ٤٤)	﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم و لا يحبونكم - آل عمران ١١٩﴾

الإنجيـــل	القرآن الكريم
- أحسنوا إلى مبغضيكم . (متى ٥ : ٤٤) .	﴿ و يدرءون بالحسنة السيئة -الرعد ٢٢ ﴾. ﴿ ادفع بالتي هي أحسن - فصلت ٣٤ ﴾.
- و صلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم و يطردونكم . (متى ٥ : ٤٤)	﴿ عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم - التوبة ١٢٨ ﴾ .
- إن سلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل تصنعون. (متى ٥ : ٤٧)	﴿ و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما -الفرقان ٦٣﴾ ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم و تقسطوا إليهم -الممتحنة ٨ ﴾
- أعط الذى يطلب منكم ،ولا تول ظهرك لمن يريد أن يقترض منك .	﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب و لكن البر . . . وآتى المال على حبه - البقرة ١٧٧﴾ ﴿و يمنعون الماعون - الماعون ٧﴾ .
- احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس . (متى ٦: ١) .	﴿الذين هم يراءون -الماعون ٦ ﴾
- إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوى . (متى ٦ : ٥) .	﴿ إن تبدوا خيرا أوتخفوه أو تعفوا عن سوء - (النساء ١٤٩ ﴾ ﴿ و ليعفوا و ليصفحوا - النور ٢٢ ﴾
- لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض. (متى ٦ :١٩)	﴿ و تأكلون التراث أكلا لماً ، و تحبون المال حبا جماً - الفجر ١٩-٢٠ ﴾
- بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء . (متى ٦ - ٢٠)	﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه - الشورى ٢٠ ﴾
- لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . (متى ٦ - ٢٤)	﴿ ضرب الله مثلا رجلاً فيه شركاء متشاكون، ورجلاً سَلَماً لرجل. هل يستويان مثلا ؟ -الزمر ٢٩﴾
- لا تهتموا لحياتكم... انظروا إلى طيور السماء ... وأبوكم السماوى	﴿ وكأى من دابة لا تحمل رزقها . الله يرزقها وإياكم - العنكبوت ٦٠﴾ .

الإنجيـــل	القرآن الكريم
يقوتها . (متى ٦ : ٢٥-٢٦)	
- لا تدينـوا ... ولمـاذا تنظـر إلـى القذى الذى فى عين أخيك . وأمـا الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها. (متى ٧ : ١-٣)	﴿ لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن-الحجرات ١١ ﴾
- لا تعط القدس للكلاب . (متى ٧ : ٦)	﴿ فذكر إن نفعت الذكرى - الأعلى ٩﴾
- اسألوا تعطوا (متى ٧ : ٧)	﴿ و إذا سألك عبادى عنى فإنى قريب .أجيب دعوة الداع إذا دعان - البقرة ١٨٦ ﴾ . ﴿و قال ربك ادعوني استجب لكم - غافر ٦٠ ﴾
- فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم أيضا بهم . (متى ٧ : ١٢)	﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون و لستم بآخذيه، إلا أن تغمضوا فيه - البقرة ٢٦٧﴾ . وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم - النساء ٩﴾ .
- ادخلوا من الباب الضيق (متى ٧ : ١٣)	﴿ فلا اقتحم العقبة - البلد ١١ ﴾ .
- احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان و لكنهم من داخل ذئاب خاطفة . (متى ٧ : ١٥)	﴿ و من الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه و هو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث و النسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم- البقرة ٢٠٤-٢٠٦﴾

لم نورد فى العرض السابق موضوعين من العهد الجديد هما الطلاق والقصاص اللذين يبدوان و كأنهما يتعارضان مع شريعة موسى .

ففى الطلاق نجد " حرية بلا قيد " منحتها التوراة للزوج فى أن يطلق زوجته إذا رأى فيها ما يثير "الخجل " ، أو عندما يشعر نحوها " بالكراهية " ، بينما الإنجيل كأنه يعارض الطلاق إلا فى حالة الخيانة . أما فى القصاص ، فمقابل الإصرار على المطالبة بدم القاتل و الرد على كل سيئة بمثلها فى التوراة، علم عيسى عليه السلام واجب عدم مقاومة الشرير و العفو عنه .

فإذا نظرنا إلى حرفية هذه المبادىء يتبين لنا أن المسيحية كأنها ألغت قوانين سابقة ، و إذا أمعنا النظر أكثر ، سنرى وجهين أو درجتين من قانون خالد واحد ، أحدهما العدل و الثانى المحبة . فالعدل يلزم من يرغب فى استخدام حقه ألا يتعدى حدودا إنسانية معينة . و أما من يرغب فى التنازل عن حقه بدافع من الكرم و الأريحية فلا غبار عليه .

ولهذا نرى أن كلاً من منهج العهد القديم و منهج العهد الجديد ، إما أنهما متكاملان أو أنهما متبادلان . . أو أنه لا مفر من الاعتراف بأنه لا ينبغى أن يحكم كل منهج منهما مستقلاً عن الآخر إلا مجموعة محدودة من البشر ، أو خلال مرحلة معينة من التاريخ . . و القاعدة الأخلاقية الصحيحة إذن هى التى يضمها الكتابان المقدسان معا بحيث احتوى كل منهما جزءاً منها ، وترك الجزء الآخر مستترا إلى حد ما . ولقد تولى القرآن الكريم إعلان هذه القاعدة الكاملة و اعتنى كل العناية بتوضيح عنصريها و إبراز قيمة كل عنصر فى ذاته . فيقول ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين .واصبر وما صبرك إلا بالله** - النحل ١٢٦ - ١٢٧﴾ هذا ما يتعلق بالقصاص والعفو .

أما فيما يختص بالطلاق فينبغى أن نتصفح القرآن الكريم لكى يتبين لنا الحواجز التى يجب اجتيازها قبل التفكير فى إيقاعه (النساء ١٩ و ٣٥ و١٢٨) ، و المحاولات التى يجب بذلها للتوفيق (البقرة ٢٢٨- ٢٣ ، و الطلاق ١ -٢)، و من يرجع عن قراره يجلب له عمله المغفرة (البقرة ٢٢٦) باعتبار الطلاق "أبغض الحلال إلى الله " . فالطلاق ليس عملاً مباحاً بغير حدود أو يؤدى بغير إكتراث .

وهكذا يوضح القرآن أعمال الرسل و يؤيد شرائعهم بالجمع و التوفيق بينها. ونعتقد أن فى هذا التوحيد الذى يقبل فى إطار قانون واحد درجات متفاوتة من أعمال الخير - عاملا على جانب كبير من الأهمية ، استطاعت بمقتضاه الدعوة الإسلامية أن تنتشر فى قطاع شاسع من البشرية ، و أن تضم فى رحابه أفكاراً و اتجاهات و طبائع جد مختلفة ، لا يجدى معها تشدد تجريدى غير متسامح، و لا تساهل بغير حدود . وبتوضيحنا لمنهج القرآن التوفيقى هذا نكون قد أبرزنا فى نفس الوقت مادة القرآن فى الدعوة والتشريع .

ولكن القرآن لا يقف عند هذا الحد ، إذ أن له رسالة أخرى ألا و هى إتمام وإنهاء الصرح الإلهى الذى بناه الرسل و الأنبياء على مر العصور . يقول الرسول ﷺ "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق " و " مثلى ومثل الأنبياء كرجل بنى بيتا " ويقول القرآن

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم - الإسراء ٩ ﴾ . فما هو الجديد و التقدمى فى تعاليم القرآن الأخلاقية ؟ . .

١- فى مجال الفضيلة الشخصية :

نجد قاعدة جديدة و مبدأ جديدا. فالقاعدة الجديدة هى تحريم الخمر و القضاء على مصادرها ، بمنع تناول أى مشروب مسكر .

وأما المبدأ الجديد فهو " النية " باعتبارها لب العمل الأخلاقى . فقد كان موسى عليه السلام يغرى قومه بأرض الميعاد و النصر على الأعداء و البركة و الرخاء فى كل شئون الدنيا، وجاء المسيح عليه السلام ليفتح عهدا جديدا و يقرر أن النعيم و السعادة الموعودة ليست فى هذه الدنيا و إنما فى ملكوت السماء . و أخيرا إذا بالقرآن الكريم يجمع بمنهجية البناء هذين الوعدين و يوفق بينهما، باعتبار أن الهدف ليس فى ملكوت السماء و لا فى ملك الدنيا، و إنما هو أعلى من هذا كله ، إنه فى الخير المطلق ، أى فى ابتغاء وجه الله تعالى الذى يجب استحضاره فى القلب عند أداء العمل الإنسانى بطاعة أوامره (البقرة ٢٧٢) و (الليل ١٩-٢٠).

٢- الفضيلة فى العلاقات بين الأفراد .

بأحكام التوراة و أحكام الانجيل، استقامت شجرة الفضيلة و بزغت فروعها وأوراقها . أما بأحكام القرآن فسوف تزهر هذه الشجرة و تؤتى ثمارها، فقد أوجد فصلا رائعا فيما يمكن تسميته بالحضارة الأخلاقية : إنه تقنين حقيقى فى الأدب و الذوق الاجتماعى و التحشم فى المظهر [١] .

٣ ، ٤ - الفضائل الجماعية و الفضائل العامة .

فى القانون الأخلاقى فى الديانة الموسوية يوجد الحاجز العالى بين الإسرائيلى و غير الإسرائيلى، فأى خير يسديه الإسرائيلى إذا لم يكن مقتصرا على شعبه ، فإنه ينبغى ألا يتعدى وطنه ولا يشمل الغريب المقيم معه . كالقرض بربا (تثنية ٢٣ : ٢٠) مطالبة

---

[١] التحية (النساء ٨٦) ، دخول البيت (النور ٢٧-٢٨) ، الاستئذان (النور ٥٨-٥٩) ، الأكل عند الأقارب (النور ٦١-٦٢) ، خفض الصوت (الحجرات ٢-٥) ، التناجى (المجادلة ٨-١١) ، الظن (الحجرات ١٢) ، غض البصر (النور ٣١) ، وضع الثياب (النور ٦٠) ، طريقة الحديث (الأحزاب ٣٢-٣٣) ، دخول بيوت النبى (الأحزاب ٥٣) ، التحشم (الأحزاب ٥٩).

الأجنبى بالحق (تثنية ١٥ : ٣) عدم استعباد أخيه (لاويين ٢٥: ٣٩) عدم التسلط عليه (لاويين ٢٥ : ٤٣ -٤٥) إلى جانب الإلتحام الإجتماعى و الشعور بالمسئولية الجماعية.(تثنية ٦ : ٧ ، ١٣ : ٥ و لاويين ٢٠ : ٢٢) .

أما القانون الأخلاقى المسيحى فله الفضل فى إسقاط هذا الحاجز " لأنه إذا أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم ؟ . . . وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون " (متى ٥ : ٤٦ -٤٧) غير أن الفضيلة الاجتماعية المسيحية كما تقدمها الأناجيل تتعلق بالعلاقات بين الأفراد أكثر من دلالتها على الروح الجماعية بصفة أساسية . و لكن المحبة المسيحية بامتدادها خارج الحدود الإقليمية و برغبتها فى احتواء الإنسانية كلها، قد أحسنت صنعا بإبطال الطابع العنصرى و استبداله بأخوة عالمية .

ولكن القرآن الكريم هو الذى أبرم هذا الجمع بين الفضيلة العامة و الفضيلة الجماعية ، إذ يقرر أنه خارج الأخوة فى الله توجد الأخوة فى آدم (الحجرات ١٠- ١١) وأن تسود المحبة و الإحسان مع اختلاف المشاعر الدينية (الممتحنة ٨)، و إقامة العدل مع الأعداء (المائدة ٢) ، و تحريم الربا مع الجميع، وأن التقى يكون كذلك داخل جماعته و خارجها (آل عمران ٧٥ -٧٦) و الاهتمام بفك أسرى المسلمين (النساء ٧٥) و العبيد بوجه عام (التوبة ٦٠ ، البقرة ١٧٧، البلد ١٣) . وهكذا تتطور فكرة الفضيلة العامة التى أعلنها الإنجيل ، وتتحدد أكثر فأكثر عندما تتسع لتشمل مجالات الحياة المختلفة .

ولكن هل معنى ذلك أن الجماعة الإسلامية تتراخى فى روابطها الداخلية لتضيع فى محيط البشرية الواسع ؟ على العكس إذ هناك مبدآن يؤكدان دورها كجماعة متميزة ومتماسكة .

الأول : يدعو المؤمنين بأن يكونوا جماعة واحدة لا تنقسم - بدون فرقة أو انشقاق - تلتف حول مثل أعلى و حول رئيسها (آل عمران ١٠٣ ،النساء ٥٩ ، الأنفال ٤٦) .

و الثانى : هو التزام جميع المسلمين بألا يتركوا المنكر يسود فى مجتمعهم (الأنفال ٢٥)، و ضرورة أن يتواصوا بالحق و الفضيلة (العصر ٣ ، البلد ١٧) ، و التعاون على البر و التقوى (المائدة ٢) . و التضامن هو مقياس جماعة المسلمين الأولى التى سميت بخير أمة أخرجت للناس (آل عمران ١١٠) .

ومع ذلك بدى لبعض المستشرقين أن يصوروا المسلم على أنه ذو نزعة " فردية لا تقاوم " لم يعرف معنى " رباط التضامن " فى يوم من الأيام ، حتى إنهم يرون الأعمال الجماعية مثل صلاة الجماعة، و وقفة عرفات ، و صلاة العيد ، أعمالا فردية تؤدى فى

وقت واحد دون أن يكون لها طابع الاحتفالات الموجهة أو المنظمة . و هذا القول لا أساس له من الصحة بدليل ما سبق توضيحه . . . و أما فى الصلاة فنرى المؤمنين مصطفين ، كل منهم يدعو للجميع ﴿ **إياك نعبد و إياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم** ﴾ ولجميع عباد الله الصالحين . فالصلاة و الزكاة واجبان توأمان ينهضان كدليل بليغ على روح التضامن فى الإسلام .

٥- الفضيلة فى المعاملات الدولية و بين الأديان .

هذا فصل جديد كل الجدة فى الأخلاق الإسلامية ، إذ لم تتح لليهودية والمسيحية وقت تأسيسهما فرصة أن يكون لهما علاقات مع دول معادية . بينما الرسول ﷺ كان على علاقات دائمة مع أمم و ديانات مختلفة ، تارة مسالمة و تارة معادية ، خلال عشر سنوات ، بصفته سياسيا و قائدا إلى جانب صفة المرشد الروحى و الأخلاقى . و من هذه المبادىء أن الحرب الشرعية لا تقوم إلا من أجل دفع العدوان (البقرة ١٩٠) ، ويجب أن تتوقف بمجرد انتهائه (الأنفال ٦١) . و هناك مبدأ احترام المواثيق المبرمة مع العدو (النحل ٩١ - ٩٢) ، و لو بدأ العدو فى نقض اتفاقه ، فلا يجوز مهاجمته على غرة ، و إنما يجب أولا إعلانه بإلغاء عهده معنا بطريقة واضحة (الأنفال ٥٨) . هذا بخلاف القواعد التى حددتها السنة .

***

الفصـــل الثـــالث

الجمال و الجانب الأدبى

توجد فى أعماق النفس الإنسانية – كما قلنا – بصيرة داخلية تميز بين الحق والباطل ، و الخير والشر ، مهما اختلفت صورهما بشرط أن يرى الإنسان بجلاء وبذهن صاف . فالعقول الثاقبة و النفوس المهيأة ، لاتحتاج لأكثر من ذلك لكى تعتنق دعوة جديدة طالما وجدت فيها هذا الشرط المزدوج ألا و هو تعليم الحقيقة و الدعوة إلى الفضيلة . وهكذا استطاع هرقل – الإمبراطور [1] الرومانى رغم جهله باللغة العربية – أن يحكم على صدق الرسالة المحمدية استنادا إلى بعض الشروط الأخلاقية التى اعتقد أنها ضرورية و كافية لإثبات ربانية هذه الرسالة .

ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لعامة الناس . فما يجذب اهتمامهم فيما يقدم إليهم هو سحر الشكل الخارجى أكثر من متانة المحتوى . وأى جديد يكتسى بمظهر حقير وغير جذاب يجعلهم ينفرون منه وينصرفون عنه . لأنهم يتسرعون فى الحكم على الأشياء بحسب المظهر قبل اختبار الجوهر و اللباب . ومن هنا ندرك قيمة العون الحقيقى الذى يمكن أن يقدمه الأدب إلى العلم و الحكمة عندما ينتصران للحقيقة والفضيلة .

و الدعوة الإسلامية تتمتع فى هذه الناحية بالكمال الذى لا تشوبه شائبة ، فبمظهرها و جوهرها تشبع حاجة من يفهم العربية . و القرآن – حامل هذه الرسالة – كان و سيظل النموذج الذى لا يبارى فى الأدب العربى . وإذا نظرنا نظرة مجردة إلى صفاته الأدبية نستطيع أن نقول إنه يعتبر المثل الأعلى لما يمكن أن يسمى أدبا بوجه عام.

ففى العصر الذهبى للغة العربية ،ما أن ظهر محكم التنزيل حتى اكتسح الحماس للشعر و النثر . وأنزلت المعلقات السبع من باب الكعبة و اتجهت كل الأسماع إلى هذا الإعجاز الجديد فى اللغة العربية .

فلغة القرآن مادة صوتية ، تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر ، و خشونة لغة أهل البادية ، و تجمع – فى تناسق حكيم – بين رقة الأولى و جزالة الثانية ، و تحقق السحر المنشود ، بفضل التوفيق الموسيقى البديع بينهما . إنها ترتيب فى مقاطع الكلمات فى نظام أكثر تماسكا من النثر ، و أقل نظما من الشعر ، يتنوع فى خلال الأية الواحدة

---

[1] انظر البخارى كتاب الجهاد باب ١٠١ ، وانظر أيضاً " ب. سان هيلبر" فى كتابه " محمد والقرآن" ص ١٥٠-١٥١.

ليجذب نشاط السامع ، و يتجانس فى آخر الآيات سجعا ، لكى لا يختل الجرس العام للوقفات فى كل سورة . أما كلماته فمنتقاة من بين الكلمات المشهورة ، دون أن تهبط إلى مستوى الدارج ومختارة من بين الكلمات السامية . التى لا توصف بالغريب إلا نادرا . وتمتاز بالإيجاز العجيب فى الكلام و التركيز الشديد فى المعنى و الوضوح الأخاذ ، مع العمق و المرونة و الإيحاء و الإشعاع فى كل جانب مثل أوجه قطعة الماس البراقة . وإنها لحقيقة مقررة أن جميع الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية و الفكرية يلتقون على فهم القرآن ، كأن كل عبارة فيه مفصلة تفصيلا بما يناسب عقلية كل منهم . . . و كل هذا فى موضوعات غير مطروقة فى الأدب الجاهلى ، بحيث أنه يحق لنا أن نؤكد أنه من الناحية اللغوية البحتة ، كان ظهور القرآن خلقاً للغة جديدة و لأسلوب جديد .

أما ما يبدو أنه فوق طاقة البشر حقا فى الأسلوب القرآنى ، فهو أنه لا يخضع للقوانين النفسية التى بمقتضاها نرى العقل و العاطفة لا يعملان إلا بالتبادل و بنسب عكسية . بينما فى القرآن لا نرى إلا تعاوناً دائماً بينهما فى كل الموضوعات ، و نرى الكلمات تسعى بقوة و تجمع فى نفس الوقت بين التعليم والإقناع و التأثير ، و تمنح القلب والعقل نصيبهما المنشود ، علاوة على احتفاظ الكلام دائما بهيبة مدهشة ، و بجلالة قوية لا تتأرجح و لا تضطرب .

و العربى الأصيل الذى تسرى فى دمه غزيرة اللغة، كان يدرك بفطنته وفطرته و يشعر أن القرآن آت من السماء ينفذ إلى القلوب و يبهر الأبصار . حتى إن الكفار أدركوا هذا التأثير فى عهد الرسول ﷺ ، و اختلفوا فى التماس التفسير و التعليل له إلى درجة أن أطلقوا عليه "سحرا " . إذ نلاحظ فى القرآن فى الحال لهجة فريدة لا تنبعث عن قلب رجل و ليست سوى نفحة ربانية. أما أحاديث الرسول ﷺ فإنها معروفة ببلاغتها الرفيعة، ويتميز عنها النص القرآنى تميزا صارخا .

وينبغى أن نركز بعض الجهد فى هذا الفصل على نقطة غفل عنها جميع المستشرقين فضلا عن بعض المسلمين، و هى طريقة القرآن الكريم فى معالجة أكثر من موضوع فى السورة الواحدة . فقد رأى بعض المستشرقين بنظرة سطحية ذلك وزعم عدم توافر التجانس و الربط الطبيعى بين المواد التى تتناولها السورة بل و أكثر من ذلك – لم ير القرآن فى جملته إلا أشتاتاً من الأفكار المتنوعة عولجت بطريقة غير منظمة وبدون أى ربط منطقى بينها . بينما رأى البعض الآخر أن علة هذا التشتيت المزعوم ترجع إلى الحاجة إلى تخفيف الملل الناتج من رتابة الأسلوب ،والحزن المترتب على تكرار النغمة ، مما يتنافى مع المثالية فى الأسلوب العربى . وهناك فريق ثالث رأى فى الوحدة الأدبية لكل سورة نوعاً من التعويض لهذا النقص الجوهرى فى وحدة المعنى. بينما فريق آخر

يضم غالبية المستشرقين رأى - وهو يحاول تبرئة الرسول -أن هذا العيب يرجع إلى الصحابة الذين جمعوا القرآن وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه و رتبوها على شكل سور .

والحق أن هذه التفسيرات جميعا لا تصلح للأخذ بها. إذ أن السنة المطهرة والأثر الصحيح متفقان على أن السور كانت بالشكل والترتيب والتركيب الذى نقرأها بها اليوم منذ حياة الرسول ﷺ .

فعندما نريد أن نقدر جمال لوحة مرسومة لا ينبغى أن نحصر نظرنا فى جزء ضيق منها، بل يجب أن نرجع قليلا إلى الوراء ، ليتسع مجال الرؤية فنحيط بالكل فى نظرة شاملة . بمثل هذه النظرة ينبغى أن ندرس كل سورة لنقدر أبعادها الحقيقية . ولقد قمنا فى الماضى أثناء تدريسنا بالأزهر بتطبيق هذه القاعدة فى دراسة لإحدى السور المدنية (وهى سورة البقرة) و لسورتين مكيتين (هما سورتا يونس و هود) وقد كانت مقررة فى البرنامج الدراسى. والواقع اننا وجدنا أكثر مما كنا نتطلب من بحثنا . فقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن لهذه السور تخطيطا حقيقيا واضحا، و محددا يتكون من ديباجة و موضوع وخاتمة .

فإذا أخذنا فى اعتبارنا التواريخ التى لا حصر لها ، و التفتيت المتناهى فى نزول الآيات ، و لاحظنا أن نزول الوحى بوجه عام كان مرتبطا بظروف ومناسبات خاصة . فإن ذلك يدعونا إلى التساؤل عن الوقت الذى تمت فيه عملية تنظيم كل سورة على شكل وحدة مستقلة . و هذا التساؤل يضعنا أمام نقطة محيرة . فسواء افترضنا أن هذا الترتيب كان قبل اكتمال نزول القرآن أو بعد اكتماله ، فقد كان المتوقع أن يتم اتباع إما الترتيب التاريخى لنزول الآيات ، و إما الترتيب المنطقى البسيط بحسب تجانس الموضوعات . إلا أنه من الملاحظ أن السور القرآنية تتنوع موضوعاتها و لا تخضع لأى فرض من الفرضين أو لأى ترتيب من الترتيبين السابقين . مما يدعونا إلى ترجيح وجود تصميم أو تخطيط معقد يكون قد وضع فى وقت سابق على نزول القرآن . ولكن سرعان ما نميل إلى الانصراف عن هذا الافتراض بسرعة بسبب مدى الاستحالة التى ينطوى عليها تصور أن يوضع نظام سابق كهذا يتم به ترتيب تحكمى بين فقرات حديث سوف يطلب إلقاؤه أو أظهاره على مدار ثلاثة و عشرين عاما ، وبما يتفق و يتناسب مع عديد من الملابسات و الظروف والأحداث التى تستدعى إظهار هذا الحديث ، والتى لا يمكن توقعها أو التنبؤ بوقوعها أو بتوقيت وقوعها . غير أن السنة النبوية تؤكد لنا هذا الافتراض الغريب و تؤيده.فإن الرسول ﷺ وسلم فور نزول الوحى عليه - كان يأمر بوضع كل جزء منه صغيرا أو كبيرا فى سورة لم تكن قد اكتملت بعد، و فى مكان محدد

منها، وفى موضع رقمى من آياتها ، و فى ترتيب لم يكن دائما هو الترتيب التاريخى. وبمجرد وضع الآية أو الآيات فى هذا الموضع أو ذاك، بقيت فيه إلى الأبد، دون أن يطرأ عليها أى تحويل أو تصحيح أو تعديل أو وصلات. من هذا نقول إنه لا بد أنه كان هناك تصميم لكل سورة ، فضلا عن وجود تصميم أو خطة عامة للقرآن فى جملته، بمقتضاها كان كل وحى جديد يوضع فى مكانه توا بين آيات هذه السورة أو تلك من السور المفتوحة. و كأن آيات القرآن كانت قطعا مستقلة و مرقمة فى بناء قائم فى مكان ، و كان يراد إعادة بنائه فى مكان آخر على نفس هيئته السابقة . و إلا فكيف يمكن تفسير هذا الترتيب الفورى و المنهجى فى آن واحد ، فيما يتعلق بكثير من السور إذا لم تكن الصحائف الخالية والصحائف التامة تمثل وحدة كاملة فى نظر المؤلف ؟ و هناك تخطيط آخر ذو طابع أسلوبى ، و بمقتضاه نلاحظ أن الاجزاء التى ستتجاور مجهزة مقدما بطريقة معينة بحيث يتزاوج بعضها مع بعض بدون ثغرات أو تصادم .

ولا شك أن طريقة القرآن هذه ليست لها مثيل على الإطلاق ، و لا يمكن لأى كتاب من الكتب فى الأدب أو فى أى مجال – أن يكون قد تم تأليفه على هذا النحو الفريد أو فى مثل هذه الظروف العجيبة .

و بمعنى آخر إذا كان الاضطراب فى النظام المنطقى أو الخلل اللغوى والبلاغى هما نتيجة حتمية لمثل هذا المشروع لو حاول أن يضطلع به انسان بسبب ما يشتمل عليه من تعقيد محير ومن صعوبات جمة ، ألا ينبغى أن نستنتج أن اكتمال هذه الخطة وتحقيقها بالصورة المطلوبة، لا بد وأن يستلزم تدخلا من قوة عظمى تتوفر فيها هذه القدرة الفائقة على إقامة مثل هذا التوافق المعجز ؟ و إلا فمن هو هذا المخلوق الذى يستطيع أن يوجه الأحداث بما يتوافق تماما مع هذا التصميم المرسوم ؟ أو كيف يمكن أن نخرج من مجموعة مصادفات بمثل هذا البناء الأدبى الرفيع و هو القرآن الكريم ؟

فإذا كانت السورة القرآنية من نتائج هذه الظروف تكون وحدتها المنطقية واللغوية فى نظرنا هى معجزة المعجزات . ولقد صرح بوجود هذه الوحدة المزدوجة كثير من ذوى الاختصاص فى هذا الموضوع من بينهم أبو بكر النيسبورى ، و فخر الدين الرازى ، و أبو بكر بن العربى ، وبرهان الدين البيقاعى ، و أبو اسحق الشاطبى . و لمراجعة هذا على بعض المختارات من القرآن . نشير إلى كتابنا " النبأ العظيم " .

إلا أن إعجابنا يصل إلى ذروته إذا أدركنا أن هذه الأجزاء المتفرقة من الآيات القرآنية قد اتبعت فى نزولها تخطيطا آخر مختلفا تمام الاختلاف عن التخطيط الذى تحدثنا عنه فى الفقرات السابقة، وما علينا إلا أن نستعرض من أولها إلى آخرها - المراحل التدريجية لهذا التخطيط الثانى خلال الثلاث و العشرين سنة :من النبوة إلى الرسالة (من

" أقرأ " بسورة العلق إلى " قم فأنذر " فى سورة المدثر) و من الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية (الحجر ٩٤) ، و من دعوة الرسول لأقاربه (الشعراء ٤ - ٢١) إلى دعوة مكة بأسرها (القصص ٥٩) ثم القرى المجاورة (الأنعام ٩٢) ثم البشرية جمعاء (الأنبياء ١٠٧) و من إرساء القواعد الأساسية للإسلام (فى السور المكية) ، إلى التطبيق العملى (فى السور المدنية)، و من التبغيض فى شرب الخمر (البقرة ٢١٩) إلى تحريمها صراحة (المائدة ٩٠) ، ومن الدعوة إلى الصبر و احتمال الأذى (النساء ٧٧) إلى المقاومة المسلحة (البقرة ١٩٠) . . .

و يكفى أن نسجل هنا تاريخين على جانب من الأهمية الأول تاريخ انطلاق الدعوة : يوم غار حراء و تلقى النبى ﷺ الوحى لأول مرة (العلق ٤ - ٥) و أنه سيكلف بمهمة شاقة (المزمل ٥) والتاريخ الثانى : و هو حجة الوداع حين أعلن الرسول أن رسالته قد تمت ، و أن مهمته على الأرض قد انتهت (المائدة ٣)، و بعد ذلك لم يلبث الرسول ﷺ أن لحق بالرفيق الأعلى .

إن هذا التطور إذن كان متفقا مع خطة تربوية تشريعية موضوعة فى وقت سابق، فى إجمالها و فى تفصيلها، بمعرفة منزل الوحى سبحانه وتعالى، فإذا كانت هذه الآيات ذاتها التى كانت تتبع فى نزولها تخطيطا تربويا ممتازا، قد تحولت بمجرد نزولها فى ترتيبها التاريخى لكى تتوزع و تتجمع فى شكل آخر على هيئة إطارات محددة، ومختلفة الأطوال ، بحيث يظهر فى النهية من هذا التوزيع المقصود، كتاب يقرأ، مكون من وحدات كاملة ، لكل منها نظامها الأدبى و المنطقى ، لا يقل روعة عن النظام التربوى العام، فهذا هو التخطيط المزدوج الذى لا يمكن أن يصدر عن قلب بشر . .

* * *

البـــاب الثـــالث

المصـدر الحقيقـى للقرآن

تمهيد

دراسة مصدر أى كتاب ينبغى أن تسبق دراسة محتواه، أما القرآن فإن دراسة مصدره تستوجب مخالفة هذه القاعدة ، لأن فكرة مصدره الإلهى ليست فقط جزءاً من دعوته وإنما الجزء الأساسى منها . لأن القرآن من أوله الى آخره ، يتحدث الى الرسول ﷺ أو يتحدث عنه ولايتركه أبدا يعبر عن فكره الشخصى ..

ولكن كيف لاننسب كلام القرآن والأفكار التى يتضمنها الى الشخص الذى جاء به ؟ وكيف يمكن ان نجعل من هذا الشخص مجرد أداة استقبال يقدم كتابه جاهزاً وكاملاً كما تلقاه من مصدر خارجى وغير بشرى ؟

مما لاشك فيه أن محمدا ﷺ وهو يؤكد هذا ، لم يكن أول من أثار قضية الوحى، بل إنه كان أكثر تواضعا من موسى عليه السلام الذى تلقى التوراة - كما يقول القرآن - فى لقاء مباشر بينه وبين الله تبارك وتعالى حيث سمع كلام الله ذاته. أما بالنسبة الى محمد ﷺ ، فإن القرآن قول رسول سماوى ، وسيط بينه وبين الله ، وفيما عدا هذا الاختلاف ، فإنهما متفقان فى نسبة ما تلقياه الى الله .

فأما الذين لاينكرون الوحى من حيث المبدأ العام ، فمن حقهم ألا يطبقوه على ظاهرة معينة إلا بعد استنفاد جميع فرص التفسير الطبيعيى لهذه الظاهرة . وإذا ما اعترفوا فى النهاية بمنشئها الإلهى المباشر يكون هذا الاعتراف آخر مطاف البحث ، وقرار العلم ، بعد استنفاد جميع الوسائل الممكنة .

فلنبعد من بحثنا إذن الحجة التى تستند إلى الإعجاز اللغوى فى القرآن و التى تؤكد مصدره الإلهى، و لنتساءل عن إمكان تفسير الأفكار التى يتضمنها القرآن بسبب آخر غير الوحى. و الواقع أن هناك بحوثا ودراسات كثيرة قد سلكت هذه السبيل فى الماضى مما يجعل البحوث الحديثة فى هذا المجال مجرد تكرار لنفس الكلام القديم ، وإن اختلفت فى الشكل و الأسلوب .

و سنتبع فى هذا الباب الترتيب الزمنى، فنقسم البحث إلى فصلين عن المرحلة المكية و المرحلة المدنية على التوالى .

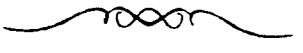

الفصـل الأول

البحث عن مصدر القرآن فى الفترة المكية

الوسط الوثنى - الحنفاء - الصابئون - العناصر المسيحية و اليهودية - رحلات الرسول ﷺ ومشاهداته - اطلاعاته - الأدب و الأساطير الشعبية - تأملاته الفكرية الشخصية .

***

تحاول أبسط الافتراضات أن تجد فى بيئة الحجاز المحدودة - إن لم يكن فى مكة - جميع العناصر الضرورية لبناء الدعوة القرآنية. ومن هذه النظرة قدم لنا " أرنست رنان " فى مقال له عن " محمد ومصادر الإسلام " نموذجا فريدا لحياة العرب قبل الإسلام فى القرن السادس بعد الميلاد. و بدلا من هذا الشعب المشرك الذى تعرفه الدنيا، وضع لنا شعبا آخر لم يعرف سوى إلها واحدا (ص ١٠٧٠- ١٠٧١) ورسم لنا مجتمعا فى أوج حماسه الدينى إلتقت فيه جميع الديانات، و جميع الحضارات بالإضافة إلى أن الدين كان شغله الشاغل (ص ١٠٨٩). وعلى هذا المنوال لا تعدو رسالة محمد ﷺ إلا أن تكون امتداداً للحركة الدينية التى سادت فى عصره من غير أن يسبقها فى أى جديد (ص ١٠٨٩). ولقد أبرز "رنان" الذوق الأدبى الرفيع لهذا الشعب، و نظرته الواقعية و أغفل سائر الصفات الأخرى التى لا تشرفه.

ولكن الصورة الحقيقية لحياة العرب فى هذه الحقبة نجدها فى القرآن ذاته ، وتختلف عن ذلك كل الاختلاف كما سبق أن رأينا . فقد كانت حياتهم حياة " الضلال المبين " و زمنهم زمن " الجاهلية الأولى " ولقد كانوا يحتفظون فى عاداتهم ببعض الآثار من ديانة إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام مثل الحج، ولكن هذه الآثار كانت تختلط بأخطاء و أوهام كثيرة (البقرة ١٨٩ و ٢٠٠) . كما كان الحاضرون فى سوق عكاظ لا يتناظرون فى الدين وإنما فى المفاخر الدنيوية، و لا نكاد نجد أثرا للدين فى أشهر القصائد المعروفة بالمعلقات الذهبية .

وفى وسط هذه الجموع من الناس ذات الجهل المفضوح، كانت تتميز صفوة قليلة تعد على الأصابع وتعرف بإسم "الحنفاء" - أى الثائرين على الرأى العام - وهى الفئة التى اعتمد عليها " رنان " لتصوير خصائص مجتمع العرب فى هذا العصر. فماذا كانت دعوة هؤلاء " الحنفاء " ؟ . . يقينا : لاشىء! سوى تمردهم على عصرهم وتطلعهم إلى دين صحيح حاولوا التماسه خارج محيطهم ولم يكن عندهم عنه أية فكرة دقيقة قادرة على أن تنبئ عن دعوة القرآن ولو من بعيد . . وكل ما يمكن استخلاصه من وجودهم

هو ما صرح به "رنان" ذاته عن حق، هو وجود "نوع من القلق والانتظار المبهم" (ص ١٠٩). وعموما مهما ردد الناس من عبارات : الله و الدين والأنبياء والكتب، والجنة فى هذه الفترة ، فلم يكن لهذه الكلمات مدلول فى نفوسهم عن أية فكرة واضحة ومتميزة .

وأولى من هؤلاء ، الحديث عن الصابئين الوارد ذكرهم بالقرآن (البقرة ٦٢ و المائدة ٦٩ والحج ١٧) و يقصد بهم طائفة وثنية متميزة (صابئى حران الذين ينسبون أنفسهم إلى صابى بن سث، الذى كان يدّعى نشر تعاليم ديانة أبيه، و أنه كان عنده كتابها باللغة السريانية)، أو أنها طائفة يهودية مسيحية تسمى 'الصابئة' (من مسيحيى يوحنا المعمدانى)،أو أنها الطائفة الأولى التى كانت تنتحل هذا الإسم. المسألة محل خلاف .

وكانت أفكار الصابئين الجوهرية وشعائرهم الأساسية معروفة وقد فندها القرآن والسنة . وكانت بعض عادات هذه الفرقة قد انتشرت فى قريش الى درجة يصعب عزلها عن الوثنية التى كانت سائدة . مثل تأليه الملائكة والكواكب وتأثيرها على الأحداث الأرضية . ونصيب الأسد الذى كان يؤخذ من القرابين ليقدم الى الآلهة الأقل درجة بدلا من تقديمها الى الله ، وعبارة الابتهال فى الحج التى كانت تتضمن الشرك بالله ...ولهم شعائر أخرى وعادات تبعد تماما عن العادات الوثنية والإسلامية . فقد كان الحج عندهم يتم بحران بالعراق ، وكانت قرابينهم تحرق تماما ، وكانوا يحرمون تعدد الزوجات ، ولايزاولون الختان ، وكانت عبادتهم طقوسا يقصد بها الكواكب تؤدى ثلاث مرات يومياً وقت الشروق والزوال والغروب . وهكذا نرى أن الوثنية التى كانت سائدة بالحجاز لاتقدم لنا تفسيرا سليما عن مصدر القرآن .

لعل البيئة اليهودية والمسيحية وقتئذ تلقى لنا بعض الضوء على هذا الموضوع . وسوف لا نعول كثيرا على قصة الراهب بحيرى، والتى تذكر أن محمدا ﷺ قابله وهو فى الثانيه عشر من عمره عندما صاحب عمه أبا طالب فى سفره الى الشام . فالحادثة إما أنها اسطورية . وإما أنه يتعين أخذ كل الوقائع المذكورة. فقد كانت المقابلة فى حضور جميع أفراد القبيلة ، وكان دور محمد ﷺ دور "المسئول" لاالمستمع . وبانتهاء استجواب الراهب له خلص الى نبوءة توقع بعثة هذا الشاب نبياً فى المستقبل . فالصواب يمنعنا من اعتبار هذه المقابلة العارضة مصدرا لتعليم محمد ﷺ .

ويقال أن بعض أفراد من المغامرين الرومان أو الزنوج الأحباش " بائعون للنبيذ أو كادحون" كانوا يعيشون فى ضواحى مكة المنزوية. و يقال أيضا "إن الإنجيل كان قد تم تدريسه فى الحانات لعقول خام " . فهل كان التقاء محمد ﷺ بالأفكار الدينية فى هذه الأماكن ؟ ومع ذلك فإنهم يتركوننا فى الغموض و الإبهام ، و لا يقدمون لنا وثيقة واحدة عن علاقات فعلية من هذا النوع. علما بأن شواغل الرسول ﷺ وسلم قبل بعثته كانت

معروفة و محددة : فى الخلاء يرعى الغنم . . فى التجارة مسافرا . . أو فى المجتمع العام مع رؤساء القبائل . فضلا عن أن هؤلاء المطمورين كانوا يجهلون دينهم وكانت لغتهم الأجنبية حائلا طبيعيا . فإذا كان هؤلاء فعلا مصدرا صالحا للأخذ عنه، ألم يكن فى متناول المعارضين أن يلجأوا إليهم و يحطموا طموح النبى ﷺ ؟

و الأفضل هو أن نتكلم عن بيئة أوسع دائرة و أغنى ثقافة. فمن المعلوم أن الغساسنة بالشام وبنى الحارث بنجران باليمن كانوا قد اعتنقوا المسيحية . . وأن محمد ﷺ فى شبابه كان من وقت لأخر يسافر فى تجارته إلى الشام و إلى اليمن . فلماذا لا يكون هذا المسافر العربى – بما عرف عنه من ملاحظة ذكية و اهتمام فطرى بالمسائل الأخلاقية – قد تأثر بأخلاق و أفكار هذه المجتمعات ؟

كان هذا رأى 'جولدسيهر ' و آخرين . . اعتقدوا أن محمد ﷺ قد وجد هنا الدفعة الأولى لنظامه الإصلاحى . . فهل دخل محمد فعلا فى الأراضى المسيحية الحقيقية؟ بعض الكتاب يشكون فى هذا لعدم وجود أية إشارة فى القرآن عن مظاهر المسيحية الخارجية، بينما يتوسع القرآن فى الكلام عن أعماق روح المسيحية الشرقية بما يخالف مسلك الشعراء العرب الذين زاروا هذه البلاد فى حين هناك كتاب آخرون أكثر اقتراباً من الحقيقة يؤكدون أن رحلات القوافل التى صاحبها الرسول ﷺ لم تبعد عن سوق "حباشا" بتهامة، و"غراش" باليمن .

وحتى لو اتصل بالمسيحية بالفعل فماذا كان سيجد ؟ يقول " ج . سال" : كان العالم المسيحى قد تعرض منذ القرن الثالث لمسخ لصورته، بسبب أطماع رجال الدين والانشقاق بينهم و الخلافات على أتفه المسائل . . وكان المسيحيون فى تحفزهم لإرضاء شهواتهم، واستخدام كل أنواع الخبث و الحقد والقسوة .. قد انتهوا تقريبا إلى طرد المسيحية من الوجود . و فى هذه العصور ظهرت و ثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد، ووجدت الكنيسة نفسها ممزقة بعد مجمع " نيقيه" بسبب الخلافات . أما بالنسبة للكنيسة الغربية . فقد بلغ الخلاف على كرسى الأسقفية بروما بين " دماز" و " أرزيسيان" إلى حد اللجوء إلى العنف و القتل. وساد الفساد فى الأخلاق و العقيدة بين الأمراء وبين رجال الدين ، واستتبع ذلك فساد الشعب حتى صار شغل الناس الشاغل هو جمع المال بأية وسيلة لإنفاقه بعد ذلك على الترف و الرذيلة .

ولقد كتب تايلور فى كتابه "المسيحية القديمة " (المجلد ١ ص ٢٦٦) " إن ما قابله محمد وأتباعه فى كل اتجاه. . لم يكن سوى خرافات منفرة، ووثنية منحطة ومخجلة، و مذاهب كنسية مغرورة، وطقوسا دينية منحلة و صبيانية، بحيث شعر العرب ذوو العقول النيرة، بأنهم رسل من قبل الله، مكلفين بإصلاح ما ألم بالعالم من فساد . . "

وعندما أراد "موشايم" وصف هذا العصر، أبرز التعارض بين المسيحيين الأوائل والأواخر، وخرج بأن الديانة الحقيقية فى القرن السابع كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات و الأوهام السخيفة، حتى إنه لم يكن فى مقدورها أن ترفع رأسها. وكأن هذه الصفحات قد كتبت لتفسير الآية ﴿ **ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم .فنسوا حظاً مما ذكروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** - المائدة ١٤ ﴾ .

فهل كان مسلك العرب الذين تنصروا أحسن حالا ؟ لا . . لأنهم احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم الوثنية القديمة،وقال على بن أبى طالب أن ما أخذه التغالبة من المسيحية لم يكن سوى شرب الخمر، و يقول "هوارت" " مهما يكن مدى إغراء فكرة تأثر محمد بما شاهده من تطبيق المسيحية بسوريا، فإنه يتحتم استبعادها، لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة ". فلا شك أن المواد التى صادفها محمد ﷺ حتى الآن تجمعت فى بناء يصلح للهدم . ولم يكن فيها ما يصلح ليقيم عليه بناءه الجديد . .

ولنوسع حقل البحث قليلا، إلى عالم المسموع، وبيئة الكتب و الاطلاع .فقد يتبادر إلى الذهن أن محمدا ﷺ قد استخلص دروسه من مطالعاته المباشرة للكتب المقدسة سواء كانت مسيحية أو يهودية أو غيرها[1] . ولكن هل كان محمد ﷺ يعرف القراءة والكتابة ؟ يجيب القرآن بالنفى ويبرهن بأمية الرسول الكريم على ربانية تعليمه . فهو أميّ من شعب أمى[2] ولم يسبق له أن قرأ كتابا أو كتب بيده ﴿ **ما كنت تتلو من قبله من**

---

[1] ذهب الدكتور "س.تسدال " إلى حد الادعاء بأن بعض مبادئ الإسلام مستقاة من الزرادشتية.

[2] حاول "لوبلوا" اقتداء بغيره من الكتّاب أن يثبت العكس . استناداً إلى رواية مضمونها أن الرسول وهو فى فراش الموت طلب أن يؤتى إليه بما يكتب عليه وصيته بشأن الخلافة. وهى حجة غير كافية لأن الرواية لم تقل أنه كتب بالفعل.. ومن جهة أخرى فإن فعل " يكتب" بالنسبة للرؤساء والعظماء بوجه عام - معناه " يملى أو يضع خاتمه" ، ولهذا قيل فى صلح الحديبية "بينما يكتب هو وسهيل إذ طلع ..." فى حين أن الذى كان يكتب هو عليّ بإملاء الرسول. وهناك تعليل آخر حاولوا استنتاجه من حادث عرضى وقع اثناء الصلح. وذلك أن الرسول عندما أمر عليا بإلغاء اسم الرسول " محمد رسول الله ..." لم يجرؤ عليّ على الشطب. وعندئذ سأله الرسول ﷺ عن مكان الكلمة المطلوب إلغاؤها وشطبها بيده.. وإلى هنا وليست هناك خلافات ، إلا أن هناك رواية صحيحية تضيف أن الرسول كتب محل الكلمة المشطوبة " محمد بن عبد الله" وهى بذلك تنسب فى ظاهرها الكتابة إلى الرسول ﷺ. إن محاولة الإفادة من هذه النقطة الضيقة لإثبات معرفة الرسول للكتابة يعتبر نسياناً للواقعة ذاتها التى تقول إنه لم يستدل على الكلمة =

كتاب و لا تخطه بيمينك. إذاً لارتاب المبطلون - العنكبوت ٤٨ ﴾ ولا شك أن معارضى الرسول كانوا يعرفون هذه الأمية جيدا . لأنهم قالوا عنه ﴿ **أساطير الأولين "اكتتبها"، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا- الفرقان ٥ ﴾** أى كتبها له غيره، ولم يقولوا "كتبها" . وهذا المعنى التبس على بعض المستشرقين . وحتى على فرض أنه كان يعرف القراءة، فقد كانت هناك عقبة يستحيل تذليلها إذ لم تكن فى هذا الوقت قد وجدت بعدُ توراة ولا إنجيل باللغة العربية[1]. و وجود هذه الوثائق بلغات أجنبية جعلها حكرا لبعض العلماء المتحدثين بأكثر من لغة . . الذين وصفهم القرآن بالبخل بما عندهم من العلم (الأنعام ٩١) . . وعلى كل حال لم ينبئنا التاريخ عن أى اتصال محدد . فطالما أن الكلام يدور فى العموميات فإنه يصعب التحكم فيه وعندما نطالب بالتحديد يحدث التناقض والتخبط .

ولكن إذا كان محمد ﷺ لم يحصل على أفكاره الدينية لا من نصوص التوراة والإنجيل مباشرة، و لامن العلماء ذوى الاختصاص، أليس من المحتمل أن يكون قد جمعها من بعض الشعراء العرب اليهود و النصارى أو ما شابههم ؟

يوضح القرآن أن الرسول ﷺ لم يكن يألف الشعر بوجه عام، بل اعتبره القرآن بالنسبة له لهوا لا يليق بشخصه . ثم نتساءل عن التعليم الذى يمكن أن يخرج من هذا النوع من الأدب ؟ وهنا نجد اتجاهين فى الأدب الجاهلى : الأول أن بعض الشعراء مثل الأعشى كان يهتم بوصف التقاليد و الطقوس الكنسية - وهو ما لا نجد له أثرا فى القرآن، بل لقد كان اهتمامهم ينصب أكثر على الخمر- التى وجه إليها القرآن ضربته القاضية . أما النوع الثانى من الشعر فقد كان يكاد يتخصص تماما فى الأفكار الدينية، وقصائد أمية بن أبى السلط أصلح نموذج لهذا النوع . ولاسيما فى وصف الحياة الأخروية وقصص الديانات القديمة، و فى بعض المواضع بنفس عبارات القرآن .

إلا أن أصالة شعر أمية غير مقطوع بصحتها، و أمية لم يدّع الأصالة و الإلهام، و إن محمدا ﷺ وأمية قد عاصر كل منهما الآخر و هما من نفس العمر تقريبا ، فضلا

= المطلوب شطبها إلا بارشاد الكاتب ، وأيضا إغفالا لما هو موضح فى نفس المكان بأن الرسول " لايحسن الكتابة". إن أى محاولة لإثبات العكس هى اضعف من ان تزعزع هذه الحقيقة ..لأن حياة محمد ﷺ معروفة فى ادق تفاصيلها وقومه لم يكونوا بهذه السذاجة.

[1] يؤكد الدكتور " جراف" أنه لم تكن هناك حاجة لإنجيل باللغة العربية إلا فى القرن التاسع والعاشر .. ويقول القس " شيدياك" بأنه لم يتمكن من الرجوع بتاريخ أقدم ترجمات العهد الجديد باللغة العربية إلى أبعد من القرن الحادى عشر.

عن أن أمية عاش و استمر فى قرض الشعر إلى ما يقرب من ثمانى سنوات بعد نزول آخر آية مكية . فمن التعسف إذن أن نقول إن هذا الشعر كان سابقا للقرآن من حيث التاريخ . ولنأخذ فى اعتبارنا موقف خصوم النبى ﷺ الذين كانوا دائما على يقظة لأقل ثغرة ليوجهوا إليها ضربتهم، و إذن لكان من السهل عليهم أن يضعوا يدهم على المسروقات من شعر أمية الذى لم يكن قد جف مداده بدلا من أن يوجهوا اتهاماتهم فى كل اتجاه حتى وصلت إلى وصم الرسول ﷺ بالجنون لتفسير ظاهرة القرآن العجيبة .

ومن هذا نخلص - إن لم يكن بتأكيد، فعلى الأقل باحتمال كبير - بأن القرآن هو الذى كان أساس الإنتاج الأدبى فى عصر نزوله، كما كان يقينا أساسه فى العصور التالية . وقد أثبت نقد شعر أمية بصفة خاصة أنه يرجع إلى عدة مصادر مختلفة.وهذا ما لاحظه "هوارت".فعندما يتكلم هذا الشاعر عن وصف النار كان يقلد التوراة ، وفى وصف الجنة يستخدم عبارات القرآن، وفى قصص التاريخ الدينى يلجأ إلى الأسطورة الشعبية . .

وتبقى أمامنا مرحلة أخيرة فى مجال التنقيب عن المصادر الطبيعية الخارجية للقرآن . ألا وهى الأفكار الشعبية .

من غير المقبول عقلاً الادعاء بأن محمداً ﷺ كان يعيش فى عزلة تامة تجعله أجهل من شعبه فى هذه النقطة. ويبدو من خلال القرآن أن هذا الشعب قد توفرت عنده بعض المعلومات عن الأديان السابقة، مما جعله يطلب من الرسول ﷺ أن يأتى ﴿ **بآية كما أرسل الأولون - الأنبياء ٥** ﴾، ويستند فى معارضته على ما سمعه ﴿ **ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة - ص ٧** ﴾، ويقارن ملة عيسى بعقيدة الوثنية.. الخ ولكن هناك أسباب كثيرة تحول بيننا و بين أن نوسع من خيالنا فى هذا الشأن.. إذ من الملاحظ أن الاهتمام - حتى من جانب الذين سافروا و تعلموا - كان ينحصر فى أشياء أخرى غير الأمور الدينية .. فضلا عن سكوت التاريخ عن الدرجة الفعلية للمعارف المدونة التى كانت عند هذا الشعب الأمّى الغافل .

والواقع أن تصور هذا الشعب على درجة من العلم تؤهله للمشاركة فى العلوم التى اقتصرت معارفها على بعض العلماء المعدودين فى ذلك الوقت، تعد فكرة غريبة لا تستقيم مع الحقائق المقررة، فلم يسبق فى أى عصر من عصور التاريخ - وعند أكثر الشعوب تحضرا و علما - أن وجدنا مثل هذا الربط بين الجاهل وبين العالم المتخصص.. والقرآن لم يلتزم الصمت عن جدة تعاليمه بالنسبة للعرب بما فيهم النبى ﷺ، فضلا عن عدم علمهم بها قبل نزول الوحى على الرسول (آل عمران ٤٤ وهود ٤٩ ويوسف ٣ ،١٠٣) فإذا كان الأمر على خلاف ذلك ماذا كان ينتظر من أعداء الإسلام ؟

ونظرا لأن الأفكار التى كانت رائجة فى هذا المجتمع لم يكن لها اتجاه واحد، بل كان لكل من المشركين و الصابئين و رجال الدين و الفرس و اليهود و النصارى أسلوبهم الخاص فى عرض الحقيقة، ففى أى فريق كان الرسول ﷺ يستطيع أن يضع ثقته ؟ وعلى أى دعوة من هذه المتناقضات يعتمد ؟ و هل كان محمد ﷺ يستطيع أن يثق بكل بساطة فى علم الجماهير وهو الذى كان يقف مما يرويه العلماء موقف التحدى ؟ وهب أنه حرص على أن يقص علينا عقيدة كل طائفة وكل مذهب وكل فرع من تلك المذاهب المعاصرة ، فأى خليط مخيف كنا سنجده فى القرآن ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** - النساء ٨٢ ﴾ .

وهنا يتعين علينا إدخال عامل جديد ألا و هو العامل الشخصى . فقد يُظَن أن الرسول ﷺ وهو فى تعبده فى حراء قبل نزول الوحى، أو وهو فى خلوته أثناء رعى الغنم - كان ينطلق فى تأملاته العميقة باحثا عن الحقيقة فى هذا الموضوع أو ذاك، وبعد البحث يقوم بالإختيار و التحديد ..

وهنا يجب التمييز بين مجالين من مجالات المعرفة الإنسانية ألا و هما معرفة الأحداث الواقعية (الأمبيريفية) و المعرفة العقلية . فالتاريخ الإنسانى لا يخضع لمنطقنا لأنه قد يشتمل على أحداث تتعارض مع ما يقبله العقل . فلا يستطيع محمد ﷺ بانطوائه على نفسه أن يكتشف حادثا ما وقع فى تاريخ ما من الزمان الغابر.ولهذا تتركز الجهود على المقارنة بين القصص الدينى فى القرآن، و بينه فى الكتب المنزلة السابقة للتوصل إلى السبب الذى نتج عنه هذا التوافق العجيب .

وقد تكون التأملات العقلية ذات قيمة عظيمة فى مجال الكشف عن الحقائق الخالدة . . فما هى حدود العقل الصافى فى مادة الدين ؟ أنها ضيقة بلا شك . . لأن العقل يستطيع أن يثبت ضلال الوثنية والخرافات وفراغها و عدم جدواها، ولكن متى أزاح ذلك عن طريقة فماذا يبنى مكانه ؟ فليست هناك دعوة أو مذهب أو نظرية تتبنى على حقائق سلبية . و من الأرجح أن محمدا ﷺ قد وجد نفسه فى مثل الحال الذى يرسمه لنا القرآن حزينا وكأنه يئن تحت حمل ثقيل . (الإنشراح ١ - ٣) (الضحى ٧).

وهب أن اجتياز المرحلة الأولى كان سريعاً، فإن معرفة الله سبحانه وتعالى ليست هى كل العلم الدينى الموجود فى القرآن . و الطريق الموصل إلى علوم القرآن طويل ومتعثر إن لم يكن مسدوداً أمام عقل الإنسان الذى يعتمد على إمكانياته المحدودة . فبأى إلهام استطاع محمد ﷺ أن يكتشف صفات الله العديدة، وأسماء الله الحسنى، وعلاقة الله بالكون المنظور وغير المنظور، ومصير الإنسان بعد الموت . . . ومن غير أن يتراجع فى حقيقة واحدة سبق أن أعلنها، ومع احتفاظه فى نفس الوقت بتوافقه العجيب

مع حقائق الكتب السماوية السابقة و المحفوظة بعناية تحت يد العلماء ؟ لا شك أن العقل مهما بلغ لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة فى هذا السبيل بمثل هذه الثقة و هذا الوضوح ما لم يكن له عون و مدد من تعاليم إيجابية خارج نطاق البشر. والقرآن يؤكد هذا،و يقرر أن محمدا ﷺ لم يكن يدرى قبل نزول الوحى عليه ﴿ **ما الكتاب و لا الإيمان - الشورى ٥٢**﴾ . هذا فضلا عن البناء التشريعى بمظاهره المختلفة، الأخلاقى منها و الإجتماعى والتعبدى . فهل كان قادرا على هداية غيره و هو يجهل كل ذلك ؟

* * *

الفصـــل الثـــانى

البحث عن مصدر القرآن فى الفترة المدنية

هل أثر انتقال الرسول ﷺ وسلم إلى بيئـــة جديـــدة، و اتصاله بأهل الكتاب على سلوكه و مصدر علمه ؟

بعد أن جبنا الآفاق المكية فى عجل و توصلنا إلى نتيجة سلبية أينما بحثنا، كان يتعين علينا أن نصدر حكمنا الآن ، لو لم يطرأ أى تغيير على مسيرة النبوة المباركة . هذا التغيير الذى حدث بالهجرة على وجه التحديد إذ انتقل الرسول ﷺ إلى جو مرحب ودود ، يحوطه فيه أتباعه الأكوياء المخلصون، وأصبح على اتصال بطائفة منظمة دينيا، ولها كتابها المقدس ،هم يهود المدينة .

فإذا استعرضنا بصفة عامة موقف القرآن من اليهود . . فهل نجد القرآن يعتبر هذا المجتمع الجديد مثلا صادقا للفضيلة المنزلة من عند الله و بالتالى جديرا بالاتباع والتأسى ؟

نلاحظ أن موقف القرآن من اليهود متباين عن موقفه من المجتمع المسيحى . فإذا تكلم عن المسيحيين بصفة خاصة نجده – إذا لم يثنى عليهم (المائدة ٨٢)– فعلى الأقل يوجه إليهم بعض اللوم فى لهجة مخففة نسبيا (المائدة ١٤) . أما إذا تحدث إلى اليهود فى ذلك العصر أو إلى أهل الكتاب عموما، فإن موقف القرآن يختلف . فهم فى نظره لا يتبعون ما أنزل إليهم ، وإنما يتبعون إلهام الشياطين (النحل ٦٣)، و عندما ألمح إلى ما أوقعه يهود اليمن بالمسيحيين بنار الأخدود اعتبر هذه الجريمة تآمرا مع سبق الإصرار على الإيمان الحق (البروج ٤ ...) ، و عندما انتقل القرآن إلى المدينة احتفظ بموقفه و عدد إدانتهم، فالذين تلقوا التوراة وحفظوا نصوصها لا يراعونها بإخلاص (الجمعة ٥)، وهم يتعاملون بالربا، ويلجأون إلى حيل مختلفة لأكل أموال الناس بالباطل (النساء ١٦١) و اعتمادا على بعض الأوهام و الأمانى يستبيحون الرشوة و الكذب (البقرة ٧٩ ...) ، ويعتقدون أنه ليس عليهم حساب بشأن الطوائف الأخرى ، و لاالتزام بالعدل فى معاملاتهم معهم (آل عمران ٧٥).

أليس من الغريب أن نفترض أن الشعب الذى يقف منه القرآن هذا الموقف يمكن أن يكون نموذجا يحتذى به محمد ﷺ وسلم ومصدرا لتعاليمه ؟ مهما بلغ هذا الافتراض من تعارض مع المنطق فإن هذا لايمنع من بحثه و دراسته، فقد تكذب الوقائع أى حكم جزافى مسبق – فماذا يفيد بناء الإيمان على رمال متحركة ؟

لقد حاول بعض المستشرقين أن يثبت أن ما أنزل على محمد ﷺ يتطور ويتعدل ويتراجع بحسب اتصاله مع المجتمع المدنى المزود بالعلم . وتأثر أغلبهم بمظهرين عامين وجدوهما متعارضين مع ربانية الرسالة، وتتركز أكبر حججهم فى موقف الرسول ﷺ المعادى الذى اتخذه فى المدينة و الذى اعتبروه تغييرا مفاجئا بالنسبة لموقفه فى مكة . وعندما نضيف إلى ذلك تعدد زيجات الرسول فى أواخر أيام حياته، يكون ذلك فى نظرهم بمثابة هدم للنظام الأخلاقى الإسلامى فى مرحلته الأخيرة . و حتى المستشرقون الذين يقدرون الإسلام وهو فى نشأته مضطهدا ومثخنا بالجراح، و يقدرون الرسول المسالم والمتزوج بامرأة واحدة، ينتابهم الهول عندما يرونه فيما بعد "ملطخ اليدين بالدماء" و"محاطا بموكب من زوجاته" .

لقد كان هؤلاء فى موقفهم هذا مدفوعين بشعورهم حتى لا يهدموا جزءاً من إيمانهم بتعاليم التوراة قبل مجيء المسيح، أكثر من اعتمادهم على التدليل المنطقى البحت. وعلى أى حال لقد أثبتنا فيما تقدم موقف القانون القرآنى إزاء النقطة الأولى بما يغنينا عن التكرار. أما النقطة الثانية، فإنها وإن كانت تمس موضوع دراستنا من بعيد و هو القرآن وليس شخصية الرسول ﷺ إلا اننا سوف نرى كيف تبدو حياة الرسول من خلال القرآن.

تبدو شخصية الرسول ﷺ فى القرآن محددة بخطوط ثلاثة : الشعور والإرادة والإيمان . فهو بطبيعته بشر كمن سبق من المرسلين (الأنبياء ٧ - ٨)، وهو يأكل الطعام ويسعى لكسب رزقه (الفرقان ٢٠) ، وله مثل بعض الرسل زوجات وذرية (الرعد ٣٨)، و أنه يقدر الجمال الإنسانى (الأحزاب ٥٢). أما عامل الإرادة، فهنا نراه ﷺ يتمتع بقدرة على الامتناع فيحرم على نفسه المباح من الطعام (التحريم١) ، ولقد قالت عائشة عنه إنه لم يوجد مثله فى التحكم فى حواسه، ثم يأتى موضوع خضوعه المطلق لتعاليم الله تبارك وتعالى التى تعلو على نظرته وميوله ، فنذكر القاعدة القرآنية التى تحدد له فئات النساء اللاتى يستطيع الزواج منهن (الأحزاب ٥٠)، و القاعدة الأخرى التى تحرم عليه أى زواج جديد مهما كانت قوة رغبته فيه أو أن يبدل زوجاته (الأحزاب٥٢)، ثم القاعدة الخاصة بحالة مطلقة زيد (ابنه بالتبنى)، وهى الزيجة الوحيدة المنصوص عنها فى القرآن (الأحزاب ٣٧) ، فتراه يحاول بكل جهده أن يمنع إتمام هذا الزواج ، ولكن قانون القرآن يفرضه عليه فرضا ليضع نهاية (بالنص والتطبيق العملى) لنظام تبنى الأطفال فى الوثنية. وهو ما يمكن تسميته الزواج بدافع الواجب رغم أى شعور معارض.

وإذا بحثنا الظروف التى عقدت فيها زيجاته الأخرى، نجد أغلبها فرضت عليه لاعتبارات إنسانية سامية مثل مواساة و تشريف زوجة شهيد، أو مهاجر مات بين أصحابه فى هجرته، أو توثيق بعض الروابط القبلية التى تعاهد معها، أو إيجاد جو مناسب

لعتق أسرى قبيلة بأكملها . . . إلخ . وليس من الصعب الحكم على الطابع الأخلاقى لرجل عاش شبابه فى العفاف المطلق، وبعد زواجه عاش مع زوجته الوحيدة بإخلاص ما يقرب من ثلاثين عاما، وشرع فى زواجه الثانى و هو فى الخامسة و الخمسين .

وإذا أخذنا فى اعتبارنا مشاغله و أعباءه وهمومه العامة و الخاصة مثل إقامة الصلوات الخمس وتعليم القرآن وتوزيع الصدقات العامة، والفصل فى المنازعات، ومقابلة الوفود،ومراسلة الملوك والحكام،وقيادة المعارك العسكرية، وسن التشريع ، وتأسيس الدولة... الخ وباختصار العناية بكل شىء وبكل الناس . ثم بعد ذلك قيام الليل (حتى تتورم قدماه، وساجداً حتى يظن أنه قبض . .) كل هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن الباعث الحقيقى على الزواج لم يكن إرضاء للغريزة البهيمية .

وأراد بعض المستشرقين أن يتوغلوا أكثر فاعتقدوا أنهم وجدوا اختلافا جذريا بين تعاليم القرآن فى الفترة المكية وتعاليمه فى الفترة المدنية.فقالوا ان القصص اليهودى و المسيحى فى مكة كان فى حالة تخطيط أولى . ولما اتصل محمد ﷺ فى المدينة باليهود استطاع أن " يألف قصص إبراهيم . وعلاقات الأنساب بين إسماعيل و الشعب العربى" ، ولقد "عاش فى البداية وهو يسيطر عليه وهم جميل بأن دعوته - أى القرآن - تتفق تماما مع كتب اليهود والمسيحيين المقدسة .ولكن معارضة اليهود المريرة أثبتت له العكس". وكانت الصلاة فى البداية مرتين فى اليوم والليلة . أما فى المدينة فقد أضيفت إليها صلاة ثالثة هى صلاة العصر "بقصد محاكاة يهود". ولنفس السبب شرع يوم عاشوراء ، وتحولت القبلة إلى بيت المقدس وهما إجراءان تم نسخهما فيما بعد بسبب موقف اليهود العدائى من الإسلام . وهكذا يتأثر فى رأيهم التشريع التعبدى بالتقلبات السياسية .وحتى فكرة القرآن عن الله طرأ عليها فى نظرهم تغيير من تأثير المواقف الحربية فى الفترة المدنية " فانضمت صفة القوة و الجبروت ضد الكفار المعاندين إلى صفة الرحمة ". لنعد أدراجنا كى نرى مدى صحة هذه الملاحظات .

فيما يختص بالقصص المسيحى واليهودى بوجه عام يؤسفنا ألا نجد ما يؤيد هذه الملاحظة من قريب أوبعيد. والرجوع إلى النص القرآنى يثبت عكس ذلك تماما .فالسور المكية هى التى تعرض أطوار هذا القصص بتفاصيله الدقيقة، ولم تترك للسور المدنية سوى فرصة استخلاص الدروس منه وغالبا فى تلميحات موجزة. وأما موضوع إبراهيم عليه السلام فقد سبق للسور المكية أن أشارت إليه (إبراهيم ٣٧) بل إنها دعت الرسول إلى اتباع ملة إبراهيم الحنيف (النحل ١٢٣). كما أننا لا نعرف شعبا له مثل ما للعرب من شغف بعلم الأنساب التى حفظوها حتى الجيل العشرين.وتذكرهم الكعبة وبها أماكن تحمل اسم إبراهيم وإسماعيل .

أما موقف الإسلام من الأديان السابقة فلم يطرأ عليه أى تطـور .فالسور المكية تطالب أهل الكتاب بالإدلاء بشهادتهم عن الكتب المقدسة (الرعد ٤٣)، و تدين فى نفس الوقت الكتابيين الذين اتبعوا الشيطان وتحالفوا معه (النحل ٦٣) .و احتفظ القرآن بموقفه فى المدينة من العلماء الذين يستشهد بهم وهو يؤكد أن عددا منهم لا يرغب فى الإدلاء بالشهادة (البقرة ١٤٦)، وهكذا يفرق القرآن بين الكتب المقدسة ذاتها، و العلماء الذين يتبعونها بإخلاص، وبين هؤلاء الذين يسمون أنفسهم يهودا أو نصارى، وهم يتبعون أهواءهم .

أما عدد صلوات المسلمين ، فنقرر أنه لا يوجد فى جميع المراجع والمؤلفات الإسلامية التى اطلعنا عليها أية إشارة إلى مثل هذا التطور، ومن المؤسف حقا أن النقاد الغربيين لا يدلوننا على الوثائق التى استقوا منها هذه الفكرة الغريبة .

لم يرد بالقرآن ذكر يوم عاشوراء، لكن علماء الحديث يقررون أن قريشا قبل الإسلام كانت تحرص على صوم هذا اليوم. وأن الرسول ذاته كان يصومه قبل الهجرة والأحاديث توصى بذلك. أما القول بأن الرسول اتخذ قراره فى البداية لمحاكاة اليهود وأنه رجع بعد ذلك بسبب تغير الموقف السياسى، فإنه قول لا يتفق مع الوقائع المقررة .

أما بشأن القبلة فإن الادعاء بأن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة (وله ما يبرره فى القرآن) كان نتيجة معاداة اليهود للإسلام ، فهو ادعاء به تداخل فى التواريخ. فقد بدأت عداوة اليهود عام ٦٢٥م بينما كان تحويل القبلة فى عام ٦٢٣م .

تبقى الملاحظة الأخيرة التى تتعلق بفكرة القرآن عن الله. فإن ما يستحق التأكيد حقا هو عكس ملاحظة الناقدين . إذ أن الواقع يكذب الملاحظة . فما أكثر ظهور " إله الحرب " فى السور المكية، حيث يكثر قصص التاريخ القديم بشره وفساده، و العقاب الأليم الذى نزل بأممه و التهديد فيها ضمنى- ولكنه دائم- للقرى التى تسلك نفس المسلك. بل إن الحروب التى صدر بها الأمر من المدينة ضد المعتدين لم تكن إلا تنفيذا لإنذار عام وصريح و تكرر ذكره قبل ذلك بمكة (يونس ١٠٢ وهود ١٢١-١٢٢ والإسراء ٥٨).

ويوجد فى أساس الاعتراض الأخير وفى منشأ كثير غيره، خطأ يتصل بالفكرة الشائعة عن مصطلح "النسخ " [١] أو " الإلغاء" فى الاسلام . فالباحثون من غير المسلمين

---

[١] وهو ينطوى على اللبس منذ قديم. ويعنى عمل نسخة خطية كما يعنى الإلغاء ، ويستخدم فى القانون أو الفقه بمعنى " وقف تطبيق قانون مؤقت". ولكن مع توسيع المعنى قصد به -

يفهمونه إما بمعنى الرجوع فى أمر صادر، أو اكتشاف حقيقة كانت مجهولة فيما مضى، وكلا المعنيين يخالفان المدلول الصحيح . فإذا طبقنا النسخ بمعنى "الحصول على علم جديد" على علم الله سبحانه - أى فى مجال المعرفة النظرية -يكون ذلك عين الكفر واللامعقول. وعلى العكس فى المجال العملى فقد وجد النسخ بالفعل فى تعاليم الدين الواحد، أو فى التعاليم من دين إلى آخر" لقد قالوا لكم كذا و أنا أقول لكم شيئا آخر. "فهل ينسخ القانون الإلهى لأن التجارب أثبتت أنه كان مجافيا للعدل أو كان خطأ ؟ لا جدال فى أن ذلك غير مقبول على الإطلاق فى أمر التشريع الإلهى المنزل لأن الله سبحانه لا يراجع نفسه و لا يرجع فى قراره،و القاعدة السابقة و القاعدة اللاحقة لهما نفس القدسية، وكل منهما وضعت فى زمانها وكانت تمثل الحكمة الوحيدة. فالتغيير اذن يكمن فى الأحداث التاريخية والحلول المتنوعة التى تستلزمها (البقرة ١٤٣). وأحيانا تنص الصيغة الأولى على أنه مؤقت (البقرة ١٠٩ والنساء ١٥) وفى الغالب يكون ذلك مستترا. فالمشرع الناجح يغير من نظم الناس حسب تقدم كفاءتهم وقدرتهم على الفهم والإدراك لتكوين النفوس المستنيرة و الخلق المتين و الأمم المنظمة .

كان الغرض من الملاحظات التى أبداها المستشرقون والتى فندناها هنا، هو أن يثبتوا- بناء على نقد من داخل التعاليم القرآنية -وجود بعض الاقتباسات من الوثائق الدينية بالمدينة . لإثبات وجود علاقة بين ا سول ﷺ وبين أهل الكتاب تلقى عن طريقها العلم منهم. فلماذا لم يتجهوا من أول الأمر ليضعوا أيدينا على الشخص أو الأشخاص الذين تلقى محمد ﷺ منهم العلم ؟ لم يجسر أى مؤرخ يقدر مسئوليته العلمية أن يفعل ذلك.

ولكن كيف لا يكون للرسول اتصال بحكماء اليهود وهو يعيش وسطهم ؟ وماذا كان موقفهم منه ؟ القرآن يرشدنا فى هذا الشأن ويقسمهم إلى قسمين : الغالبية العظمى وكانت تعادى الإسلام حتى قبل الهجرة، وكانت تخفى علمها عن الرسول، وحاولت

= بعض المفسرين كل توضيح أو تحديد لمدلول أية عبارة. ولقد اسرف ابن حزم فى استخدامه بهذا المعنى فاعتبر عبارة " إلا" " ولكن" نسخاً للمدلول العام أو المشار إليه ، مثال لهذا الاستخدام الغريب : فى أول سورة المزمل يقول " إلا قليلا" نسخ " لليل" و "نصفه" نسخ " إلا قليلا" و " أنقص" نسخ " نصفه" . وبعد ثلاث مواضع للنسخ فى هذه الآية. فهل تندهش إذا ذكر أن فى القرآن ٢٢٤ نسخا. ولقد التقط المستشرقون هذا العدد دون أخذ طريقة ابن حزم فى الحسبان واضافوا إليه مزيداً.. وقالوا بأن هذا هو عدد المتناقضات الموجودة فى القرآن التى اعترف بها المسلمون انفسهم باعتبارها ناتجة عن التقلبات السياسية (الكتاب السابق رنان ص ١٠٧٩) (وس. تسدال فى " مصادر القرآن" بالانجليزية ص ٢٧٨".

خداعه وبث المكائد فى طريقه، وكانوا أحيانا يلقون عليه عن طريق إخوانهم أسئلة محرجة عن الروح (الإسراء ٨٥) ، و عن بعض الألغاز التاريخية (الكهف ٩)، ويطالبونه بأن ينزل كتابا من السماء (النساء ١٥٣)، و أحيانا ينكرون نصوصا أكد الرسول وجودها فى كتبهم و لايعترفون إلا بعد تحديهم و إثبات غشهم (آل عمران ٩٣/٩٥ و المائدة ٤٣). وهكذا نرى أن هؤلاء كانوا بعيدين عن موقف الملقن المرحب، وبالعكس كان هناك فريق آخر من علماء اليهود الذين ضاقوا ذرعا بادعاءات اليهود العنصرية و بغرورهم، وحضروا ليستمعوا إليه ويتفحصوا وجهه، وعندما تعرفوا عليه فى الحال - بناء على بعض العلامات الموجودة فى كتبهم - شهدوا له بصدق رسالته (البقرة ١٢١). وأشهرهم عبد الله بن سلام الذى كان اليهود يعتبرونه أوسعهم علما وأحسنهم خلقا وذلك قبل إعلان إسلامه مباشرة، وما أن أعلن إسلامه حتى أنكروا عليه كل ذلك فى نفس الجلسة. وبين هاتين الفئتين، لم يترك التاريخ مكانا " لأصدقاء معلمين".

أما الادعاء بأن الرسول ﷺ تلقى علمه من عبد الله بن سلام نفسه، فإن ذلك ينطوى على تحريف للحقائق التاريخية [1] بالخلط بين دور التابع والمتبوع ، وينطوى على قلب ترتيب الأحداث التاريخية المعروفة لأن جوهر حقائق التوراة كان قد أعلن كله بمكة، وأن القليل من الآيات التى نزلت بالمدينة كانت تتعلق أغلبها بالحقائق الدينية المسيحية التى ينكرها اليهود .

فمهما بذل المغرضون من محاولات لتجميع نقاط التشابه بين الحقائق القرآنية والحقائق اليهودية و المسيحية [2] . . فلن يعدو أن يكون ذلك اصطناع أسلحة تفيد منها حقائق القرآن الذى يؤكد وجودها فى اذلكتب المنزلة السابقة (الشعراء ١٩٦) (الأعلى ١٨- ١٩) و أن شهادة علماء بنى إسرائيل دليل قاطع على صدقها (الشعراء ١٩٧).

ولكن الاتفاق شىء و الاقتباس شىء آخر . وبينما فراغ شاسع لم يحظ بأن يجد من يملأه حتى وقتنا الحاضر على الأقل .

---

[1] وخلط تاريخى آخر مع فاصل زمنى أكبر عن الدور المزعوم لسلمان الفارسى ومريم القبطية. والواقع أن سلمان أسلم بعد الهجرة بقليل ولم يصاحب الرسول إلا فى العام الخامس فى معركة الخندق. أما مريم القبطية فقد وصلت فى العام السابع الهجرى.

[2] وهو ماتركزت عليه جهود الدكتور (س. تسدال) محاولاً أن يثبت أن القران يرتبط بالأساطير التاريخية (ص ٦١-٦٢) فأغفل عن عمد ذكر اى تشابه بين القرآن وبين العهد القديم والعهد الجديد . وانهمك فى الكشف عن ارتباط بعض التفاصيل فى القران بما ورد فى التلمود والآثار اليهودية والمسيحية البعيدة عن التوراة والإنجيل.

خاتمة الباب الثالث

لقد بحثنا افتراض وجود مصدر بشرى لتعاليم القرآن، فتتبعنا الرسول ﷺ فى حياته العادية وحياة الرسالة، فى مكة وفى المدينة، فى رحلاته و اتصالاته، وتعرضنا لقدرته على القراءة، ولمدى توفر الوثائق تحت يده، فجميع سبل البحث ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أى احتمال لطريق طبيعى كمصدر للقرآن. هذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة و المفصلة فى مجال الدين والتاريخ و الأخلاق والقانون والكون ...الخ .

فهل حاول أن يسأل الطبيعة أو يسأل نفسه ؟ من المحتمل ذلك . ولكن الرد الذى يمكن أن يتلقاه لم يكن يتعدى الحقائق المبهمة و الدارجة لما جرى العرف على تسميته "الديانة الطبيعية " التى تختلف عن العلم الصحيح والحقائق المفصلة فى كل مجال .

من أين ينبع إذن هذا الوحى ؟ أليس من أعماق نفسه ؟ إن الوقائع تثبت لنا عكس ذلك. فطابع الأفكار التى تبلغ إليه عن طريق الوحى إما تجريبى و إما فوق مستوى العقل، أى أنها بعيدة عن مجال العقل الصافى، وبعيدة كذلك عن الشعور المحصور فى منابعه العادية مثل إلهام الشعراء والفلاسفة، إذ الملاحظ أن الوحى ليس أفكارا تنبع من داخل نفسه، و إنما هو سماع صوتى صافى أى أن الأفكار تلازم الحديث و لا تسبقه. ولقد انزعج الرسول ﷺ ذاته من هذه الظاهرة السمعية فى بداية الأمر . . وعندما أراد أن يلتقط آيات الوحى وجد نفسه مضطرا لأن يكرر النص لنفسه كلمة كلمة أثناء تلقى الوحى، ولم يتوقف عن ذلك إلا عندما تلقى أمراً صريحاً مع ضمان بأن الله سيعلمه إياه ويشرحه له ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه - القيامة ١٦ - ١٩ ﴾ هذه كلمة تستحق أن تسترعى الانتباه و تضعنا أمام وحى نصى بدون قيد و لا شرط .

إن الوحى تجربة عاشها الرسول ﷺ وكان معاصرو الرسول كثيرا مايحضرون نزول الوحى كشهود عيان، وشاهدوا بأنفسهم الأعراض الخارجية لظاهرة الوحى، التى كانت بالنسبة للرسول ﷺ تجربة عاشها ولم يصطنعها . إنها حادث يتلقاه بكل سلبية، وليس فى قدرته الهروب منه عند مجيئه، و لا فى استطاعته أن يتهيأ له إذا احتاج إليه[1].

---

[1] لقد تأخر الوحى فى حادث الإفك شهراً كاملاً ، ولم يكن فى مقدور الرسول أن يتعجله ، أو يتقول بشئ أو يؤكد أو ينفى الشائعات. و إذا كان الأمر بيد الرسول ويتوقف عليه ، ألم يكن يستطيع أن يغض الموضوع بلباقة ثم ينسب قوله إلى الوحى؟؟

فضلا عن أن كل درس من الوحى كان فصلاً جديداً يضاف إلى ذخيرته العلمية . وبعيداً عن ضوء هذا العلم الربانى، يعود النبى إلى حدود قدرته البشرية، فأمام الماضى والمستقبل، و أمام ما يصعب على الذكاء الإنسانى السليم اختراق حجبه، كان لا يسعه إلا أن يضع علامة استفهام كغيره من الناس بكل أمانه و بكل تواضع .

ومعلوم موقف الرسول الملىء بالخشية و التقديس نحو القرآن المنزل عليه، وإيمانه بأنه كلام الله ذاته، و عند تفسيره كان موقفه كأى مفسر أمام نص ليس له (التوبة ٨٠ ، المنافقون ٦)، وكان يرتعد لفكرة أن ينسب إلى الله قولاً لم يقله مهما كان القول بسيطا (الحاقة ٤٤ - ٤٧) ، كما كان يشعر بحرس من السماء و بمراقبين يحيطون به (الجن ٢٧ - ٢٨) .

وليس صحيحا أن القرآن يعكس شخصية الرسول ﷺ. ففى أغلب الأحيان لا يذكر شيئا عنه؛ و لاتجد أقل صدى لأحزانه؛ و إذا ذكر شيئا فلكى يحكم عليه أو يضبط سلوكه طالما أن الأمر يتعلق بالسلوك الأخلاقى. وهنا نجد التعارض جليا بين السلطة التشريعية والنفس الخاضعة المستسلمة . . وليس من النادر أن يتضمن الدرس اللوم[1] لأقل مخالفة منه للمثل الأعلى المنشود [2] .

وطالما أنه ليس لديه تعاليم صريحة من الوحى فى أمر ما، فهو ذو طبيعة خجولة حيية (الأحزاب ٥٣)، حساساً لما قد يقال عنه (الأحزاب ٣٧) ، لا يقطع دون أصحابه برأى (آل عمران ١٥٩) ، معترف بعدم علمه بمصيره الشخصى و مصير غيره (الأحقاف ٩). ولكن بمجرد أن يتلقى علمه من الوحى نراه يبلغ رسالته فى ثقة وقوة ، ويقف موقف المعلم والمربى لجميع الناس (آل عمران ٢٠). ومنذ قبل الهجرة

---

[1] عن الأسرى (الأنفال ٦٧) الإذن للمنافقين (التوبة ٤٣-١١٢) عدم العناية بالأعمى (عبس ١-١٠).

[2] وإذا بحثنا الوقائع التى اعترض القرآن بشأنها على الرسول ، نندهش أن نجد أنها تتصف بخصائص مشتركة ، وهو أن أمام حلين كل منهما مباح (فى الغالب يوجد نص صريح (محمد ٤) (النور ٦٢) (التوبة ٨٠) (الأحزاب ٤) (الأحزاب ٤٨) اختار الرسول ﷺ الحل الذى رآه أنسب للصالح العام ، وكان اوفق الحلين فى ذاته أمام أى عقل إنسانى (التوبة ٤٧). أما فى نظر الحكمة الإلهية. فقد كان الاختيار ذا معنى اقل فى الدرجة ، مبكراً قليلاً (فى الحالتين الأوليين) متسامحاً قليلاً (الحالة الثالثة) أقل جرأة (الحالة الرابعة). أو مستهدفا غرض غير ممكن التنفيذ (الحالة الخامسة).

يعلن أن من جوهر رسالته هداية بنى اسرائيل، وبوجه عام جميع الأمم التى تلقت ديناً سماوياً ، و أن يوضح لهم الحقيقة فى منازعاتهم و خلافاتهم (النحل ٦٤ و ٧٦) ، وعندما يصدر حكما لا يجامل أحدا (الشورى ١٥)، فوراء هذه الدفعة الصلبة قوة عظيمة ليست قوة هذا الإنسان، ولهذا نراه يتمتع بروح لا تضطرب، وبإيمان لا يتزعزع فى معية الله وعونه (التوبة ٤٠) ، ويعرض نفسه وأهله لأخطار المباهلة (آل عمران ٦١)، بينما يتراجع المترددون المتشككون .

وأمام هذه الأدلة الكثيرة القاطعة اتفق كثير من الكتاب المسيحيين [1] الذين يبحثون عن الحقيقة فى نزاهة - على أن النبى العربى يتمتع بإخلاص وصدق نفسى يجعلانه ذا قوة بالغة فى التأثير و الإقناع .

إلا أنه لا يترتب على تقرير هذا الإخلاص النفسى اعتبار الوحى من مصدر ربانى . فقد يكون الشخص ضحية أوهام لا شعورية، فتظهر فجأة فى ذهنه أفكار وتعبيرات يظن أنها جديدة تماما، بينما هو فى الواقع يجتر المعارف القديمة و المدفونة فى أعماق نفسه . بل من المحتمل أن يعتقد أن متحصلاته العلمية الحديثة أتت إليه من طريق الوحى و الإلهام، طالما أنها تؤكد فى نفسه إيمانه بإلهامه الشخصى، وهو لا يدرى عن مصدرها الحقيقى شيئا .

غير أن هذه الأوهام، وهذا الضعف فى الذاكرة، أعراض حالة ذهنية غير سوية، وليست لها صلة على الاطلاق بالحالة التى نحن بصددها لا من حيث الموضوع ولا من حيث الشخص : فمن حيث الموضوع نرى إما إنعدام المصادر الشعبية، و إما شائعات غامضة و متناقضة، لا تنهض لتفسير استقامة الخط الذى اتبعه القرآن، وتفسير خطواته الثابتة الفاصلة . و أما من حيث الشخص ذاته، فليس هناك أدنى علامة تشير من قريب أو بعيد إلى خلل عقلى، بل العكس هو الصحيح، وشهادة " رنان " هى خير دليل " لم يخلق عقل قط بمثل صفائه، ولم يوجد إنسان قط تحكم مثله فى فكره" ' (المرجع السابق ص ١٠٨٠) . ومضاهاة الحقائق النابعة من الحالتين، يمكن أن ترشدنا فى حكمنا بمدى إيجابيتها حسب درجة توافقها أو اختلافها .

فبعد أن مر محمد ﷺ بالتجربتين يتكلم بذهن واع عن اتصاله بعالم المنظور وعالم الغيب، بالمادة و بالروح. إنها تجربة عاشها و تحقق منها وتكررت معه آلاف

---

[1] ومنهم " اندرا" و " ج. سان هيلير" و " كارليل" و "جولدسيهر" و " ماسينيون" و "نولديك تربين" ... الخ.

المرات. فقد استمع بكل وضوح إلى الرسول السماوى المتحدث إليه باسم الله، ورآه بعينيه بوضوح كامل فى شكله العظيم (التكوير ١٩ - ٢٠) ورآه عدة مرات (النجم ١١ - ١٧)، وهل يجوز أن ننكر على إنسان سليم البدن و العقل ما رأى (النجم ١٢) .

إلا أننا -نحن المستمعين - لا نستطيع أن نمر بنفس التجربة، و لا أن نعيشها كما عاشها هو. هذا صحيح . ولكن لدينا من وسائل المراجعة ما يساعدنا على أن نتحقق مما إذا كان هذا مجرد هلوسة أو ظاهرة مرضية " تنتاب ذوى القدرات الخارقة وحدهم" أو أن صوت الحق ذاته هو الذى يلهمه . فعلينا إذن مراجعة محتوى تعاليمه و مضمونها، وليس تأكيده واقتناعه بها .

وإليك ثلاث عينات :

١- حقائق دينية و أخلاقية وتاريخية .

رأينا من أمثلة المبادىء الأخلاقية، أن أى حماس أو أية معارف مبهمة عن الكتب المقدسة لا تستطيع أن تضمن للنبى العربى ﷺ هذا التوافق والتطابق العجيب بينها وبين تعاليمه، وقد يكون من المفيد أن نعقد مقارنة بين التوراة و القرآن عن صفات الله والملائكة و الأنبياء وما وراء الكون ... ولكن ذلك سيكون خروجا عن دائرة هذا "المدخل" ، ويكفى أن نقول إنه عندما يشترك هذان الكتابان فى الحديث عن موضوع واحد، فإن جوهر المعنى يتشابه بينهما بشكل يستلفت الانظار، بحيث يكاد ينحصر الاختلاف فى فروق طفيفة وثانوية، و كأن التوراة كانت تحت بصره دائما، مع تميز القرآن باستقلال فى لهجته واتزانه، وطريقته فى عرض الدروس، و اتجاهه نحو استخلاص العبر من كل عرض . ولقد كتب "جول دافيد" فى مقال بعنوان "توافقات واختلافات بين القصص الدينى فى التوراة و القرآن" يقول إن الجوهر واحد، و الاختلاف ليس إلا فى الشكل، وفى تفاصيل طفيفة للغاية " .

علما بأن "الاختلاف " يكون فى "التعارض والتناقض" وهو نادر جدا بين هذين الكتابين وقابل للتأويل. أما الحذف و الزيادة فلا يسميان اختلافا . ويعتمد المتشككون على اختلافات تافهة ليرفضوا الإسلام ككل . بينما المنطق يتطلب أن يكون موقفهم مغايرا . فعند اختلاف الرواة الموثوق بهم، نتوقف أمام نقط الاختلاف وحدها، إما لكى نعلق اصدار حكمنا، و إما لمحاولة البحث عن نوع من الربط يسمح لنا بتصحيح بعض الروايات بغيرها . والطريقة التى تتبع للتوفيق و التدرج بين الأناجيل الأربعة، يجب أن تتبع فى دراسة المواعظ والوصايا الدينية التى تركها لنا جميع رسل الله. فهم جميعا مقدسون ومنزهون ، وقد مروا بتجربة الاتصال بعالم الغيب، وأن تطابق أقوالهم فى

جوهر تعاليمهم، ينبغى أن يفتح أعين الغافلين على صدقهم وصحة مبادئهم التى تناولت الحقائق العليا من زوايا مختلفة .

٢- حقائق علمية.

والقرآن فى دعوته إلى الإيمان و الفضيلة يستخدم الحقائق الكونية الدائمة ويدعوعقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة - لا بغرض دراستها و فهمها فحسب- وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير. ونلاحظ أن الحقائق التى يقدمها تتفق تماما مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث . مثل منبع العنصر الجنسى للإنسان (الطارق ٦ - ٧)، ومراحل الإنسان فى بطن أمه (الحج ٥)، وعدد التجويفات المظلمة التى يتم الخلق بداخلها (الزمر ٦)، ومنشأ المخلوقات المائى (الأنبياء ٣٠) ، وتكوين المطر (الروم ٤٨) ، ودائرية السماء (الزمر ٥) ، وكروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب (الأنبياء ٤٤) ، ومسيرة الشمس إلى نقطة معلومة (يس ٣٨)، وتعايش الحيوانات فى جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية (الأنعام ٣٨)، ووصف حياة النحل (النحل٦٨-٦٩)، وثنائية النباتات والمخلوقات (يس ٣٦)، والتلقيح بواسطة الرياح (الحجر ٢٢) .

ولكن تميز القرآن وتفرده لا يقف عند ما يصرح به، بل إن إعجازه يمتد إلى ما يمتنع عن قوله أو يسقطه عن قصد . . (مثل الروح . .) .

والأمثلة السابقة تتضمن تطابقا - حيا بين التوضيح القرآنى ذاته وبين التوضيح العلمى الذى ثبت بعد بحوث طويلة خلال العصور و الأجيال التى انتهت إلى النتائج المقطوع بصحتها، بفضل إسهام رجال متخصصين كل فى فرعه المحدود . هل فى هذا مجرد صدفة ؟ هل يمكن فى عصر الجاهلية أن يتعرض رجل مجرد من أية معدات فنية، لعلوم التشريح و الأرصاد الجوية و الكونية و النفسية للحيوان والإنسان وفروع أخرى كثيرة (فضلا عما اشتمل عليه كتابه من حلول فى الأخلاق والدين و الاجتماع)، وأن يعطينا فى كل موضوع حقائق عالمية خالدة لا تتزعزع من غير أن يترك فى أى مجال أثرا ولو طفيفا ينم عن عصره أو بيئته أو حتى خياله الشخصى ؟

٣ - تنبؤات المستقبل.

ولقد أعلن القرآن عن أحداث ستتم مستقبلا ، رأيناها تقع كما أعلن مثل مواقف معارضيه الثلاثة (المخالفة، والميل للتوفيق، والمعاداة)، و تتابع مصائرهم بحسب كل موقف (مجاعة ورخاء وهزيمة).(الدخان ١٠-١٦) - وأعلن قبل الهجرة بسنوات عن هزيمة قريش ببدر (التى وقعت فى العام الثانى الهجرى) فى نفس الوقت الذى ينهزم فيه الفرس من الروم (الروم ٣ - ٥)، وضربة السيف التى تلقاها الوليد بن المغيرة على أنفه

(القلم ١٦) وخلود دعوة القرآن على مر الزمان (الرعد ١٧)، وقيام دولة الإسلام الفتية على الأرض (النور ٥٥)، و عجز كل قوى الأرض عن القضاء عليها (الأنفال ٣٦)، و عن مستقبل المسيحية (الانشقاق و الخلاف إلى يوم القيامة) (المائدة ١٤) وتشتت بنى إسرائيل فى أقطار الأرض و اضطهادهم وحاجتهم الدائمة إلى الحليف (آل عمران ١١٢)، وتفوق المسيحيين على اليهود إلى يوم القيامة (آل عمران ٥٥) ...

وهكذا تتضافر أحداث الماضى والحاضر والمستقبل فى مجال الواقع لكى تتوافق مع عالم الأفكار و تؤيدها. بماذا نخلص من هذا كله ؟ ..

إما أن الله يخدعنا عندما يترك جميع الأدلة القاطعة تتحاز إلى كذاب مخادع ولا يترك لنا بصيصا من الضوء يعاوننا على كشف أمره . وإما أن يكون هناك ميثاق معقود مع العناية الإلهية تولت بمقتضاه السهر على هذه الدعوة لعصمتها من كل زلل .

إن القرآن ليس إنتاجا محليا، لأن الحقائق التى يقدمها هى من النوع الذى يسهل على جميع العقول إدراكه واستخلاص الفائدة الأخلاقية منه. ولهذا نرى مكانه عاليا فوق كل الاعتبارات الجغرافية والعنصرية .. ولهذا لا يذكر عموما أسماء الأشخاص والأماكن التى يتحدث عنها، وإنما يركز على العبر و الدروس التى تفيد فى تربية الإنسانية .

إن هذا المنهج الكامل المتكامل الذى ينفرد به القرآن وحده هو فى ذاته برهان وأى برهان. ولقد انتشرت الدعوة القرآنية فى البداية فى الجزيرة العربية بين العرب ولكن غايتها هى أفراد البشرية أجمعين .

***

المراجع

أ - المراجع العربية

ابن أبى داود	كتاب المصاحف	المطبعة الرحمانية بالقاهرة	١٩٣٦ م
ابن سعد	الطبقات	٨ اجزاء طبع ليدن	١٣٣٥ هـ
ابن النديم	الفهرست	طبع ليبزيج	١٨٧٢ م
ابن هشام	سيرة الرسول	جزءان طبع صبيح بالقاهرة	١٩٢٩م
أبو داود	السنن	٤ أجزاء طبع الخشاب بالقاهرة على هامش الزرقانى على الموطأ	١٣١٠ هـ
البخارى	الجامع الصحيح	٩ أجزاء طبع بولاق بالقاهرة	١٢٨٩ هـ
الترمذى	الجامع (أو السنن)	جزءان طبع بولاق بالقاهرة	١٢٩٢ هـ
دراز	النبأ العظيم	طبع المليجى بالقاهرة	١٣٥٢ هـ
الرازى	مفاتيح الغيب (المعروف بالتفسير الكبير)	٦ أجزاء طبع بولاق بالقاهرة	١٢٧٨ هـ.
راستدوفانى	تاريخ القرآن والمصاحف	طبع بطرسبورج	١٣٢٣ هـ
الزنجانى	تاريخ القرآن	طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة	١٩٣٥م
السيوطى	الاتقان فى علوم القرآن	جزءان المطبعة الأزهرية بالقاهرة (على هامش تفسير الجلالين)	١٣٤٤ هـ
السيوطى	الجامع الصغير (مع زياداته التى ضمها إليه النبهانى وجمعهما تحت اسم الفتح الكبير)	٣ أجزاء طبع الحلبى بالقاهرة	١٣٥٠ هـ
السيوطى	الدر المنثور	٦ أجزاء طبع الحلبى بالقاهرة	١٣١٤ هـ
طاهر الجزائرى	التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن	طبع المنار بالقاهرة	١٩٣٤م
العقاد	الله	طبع دار المعارف بالقاهرة	١٩٤٧م
مالك	الموطأ	جزءان بشرح السيوطى طبع الحلبى بالقاهرة	١٣٤٩ هـ
مسلم	الصحيح (أو الجامع الصحيح)	٨ أجزاء طبع استامبول	١٣٣٤ هـ

النبهانى	الأنوار المحمدية	طبع بيروت	١٣١٢ هـ
النووى	تهذيب الأسماء واللغات	طبع لندن (جمعية نشر النصوص الشرقية) ١٨٤٧ م	

ب - المراجع الأجنبية

La Bible	trad fr. par Louis Segond	Imprim. Univ. De Cambridge , 1932
L'Encyclopédie de l'Islam	Par les principaux orientalistes	Leide 1908-1938
Andrae	Mahomet, sa Vie et sa Doctrine	Ed. Paris, Maisonneuve ,1945
Barthélemy-St-Hilaire	Mahomet et le Koran	Paris , Didier , 1865
Caussin de Perceval	Essai sur l'histoire de Arabes avant l'Islamisme, pendent l'époque de Mahomet et jusqu'à la rèduction de toutes les tribus sous la loi musulmane	3 vol. Paris , 1847.
Chidiac	Voir Al-Ghazali: " Refutattion Excellente de la divinitè de Jésus-Christ , d'après les Evangiles traduit et commentè par Robert Chidiac.	Paris, Leroux 1933
David	Analogies et Divergences entre les Légendes de la Bible et du Koran	Revue Socio. Et Hist. IVe série. T. II., Mars 1884.
Draz	La Morale du Koran	Le Caire , Al-Ma'aref 1949.
Al-Falki (Mahmoud)	Mémoire sur le Calendrier Arabe avant l"Islamisme et sur la Naissance et l'Age du Prophète Mohammed	Asiatique,Paris,1858
Gaudefroy-Demombynes	Institutions Musulmanes	Paris, Flammarion , 1946

Gaudefroy-Dëmombynes	L'Islam	Paris , Alcan. Extrait de: " Histoire et Historiens depuis cinquante ans (1876-1926).
Gautier	Moeurs et Coutumes des Muslumans	Paris P a y o t , 1931
Goldziher	Le Dogme et la Loi de l'Islam. Trad. Fr. Par Fèlix Arin.	Paris , Geuthner , 1920.
Huart	Une Nouvelle Source du Koran	Jour. As. Jullet-Août 1904.
Jeffery (Dr.)	Materials for the History of the Text of the Qur'an	Leiden 1937.
Jouguet	L'Impérialiasme Macédonien et l'Hélénisation de l'Orient	Paris , Renaissance du Livre, 1926.
Kazem (dit Mirza Alexandre)	Observation sur le Chapitre Inconnu du Koran	Jour . as. Mai 1843.
Lammens (Père)	Age de Mohammad	Jour. As. Mars-Avril 1911
"	Berceau de l'Islam à la Veille de l'Hégire	Rome , 1914
"	L'Islam , Croyance et Institutions	Beyrouth éd.Catholique , 1926.
Leblois	Le Koran et la Bible Hébraique	Paris, Fishbacher,1887
Massé	L'Islam	Paris, Colin , 1937.
Massignon	La mubâhala	Paris , Imp Adminstrative , 1944.
Noeldeke	Geschichte des Qurâns	Leipzig. 2e éd . 1909-1938
Padwik	Al-Ghazali and the Arabic Gopsels	Rev. The Moslem World.1939.
Porter	Discours Préliminaire sur la Religion des Mahométants (trad. Fr. , mise à la tête dc l'Al-Coran de Du Ryer)	Amsterdam , 1775.
Renan	Mahomet et les Origines dc L'Islamisme	Revue des Deux Mondes. Décembre 1851.

Saint-Clai Tisdall	The Original Sources of the Qur'an	London , Society for Promoting Christian Knowledge , 1905.
Salâma (Dr.)	Enseignment Islamique en Egypte	Le Caire , Imp. Nationale 1939.
Sale (Georges)	Observation Historiques et Critiques sur le Mahométisme (trad. Fr. , mise à la téte de l'Al-Coran de Du Ryer).	Amsterdam , 1775
Schwally	Voir Noeldeke , Geschichte des Qur'ans.	Leipzig, 2e éd. 1909-1938

* * *

الفهرس

مقدمة المختصر ص ٤

ملخص مقدمة المؤلف ص ٥

الباب الأول

حقائق تاريخية أولية

ص: ٧- ٢١

الفصل الأول : كيف جمع نص التنزيل الحكيم ص ٩

الفصل الثانى: كيف تم تبليغ المبدأ القرآنى إلى العالم ص ١٥

الباب الثانى

القرآن من خلال مظاهره الثلاثة

الدينى والخلقى والأدبى

ص : ٢٣ - ٤٥

الفصل الأول : الحق أو العنصر الدينى ص ٢٥

الفصل الثانى: الخير أو العنصر الأخلاقى ص ٢٩

الفصل الثالث: الجمال أو الجانب الأدبى ص ٤١

الباب الثالث

مصدر القرآن

ص: ٤٧ - ٧٠

الفصل الأول : البحث عن مصدر القرآن فى الفترة المكية ص ٥٠

الفصل الثانى: البحث عن مصدر القرآن فى الفترة المدنية ص ٥٩

الخاتمة : ص ٦٥

أ - المراجع العربية ص ٧١

ب - المراجع الأجنبية ص ٧٢